
المستحيل
مصطفى محمود

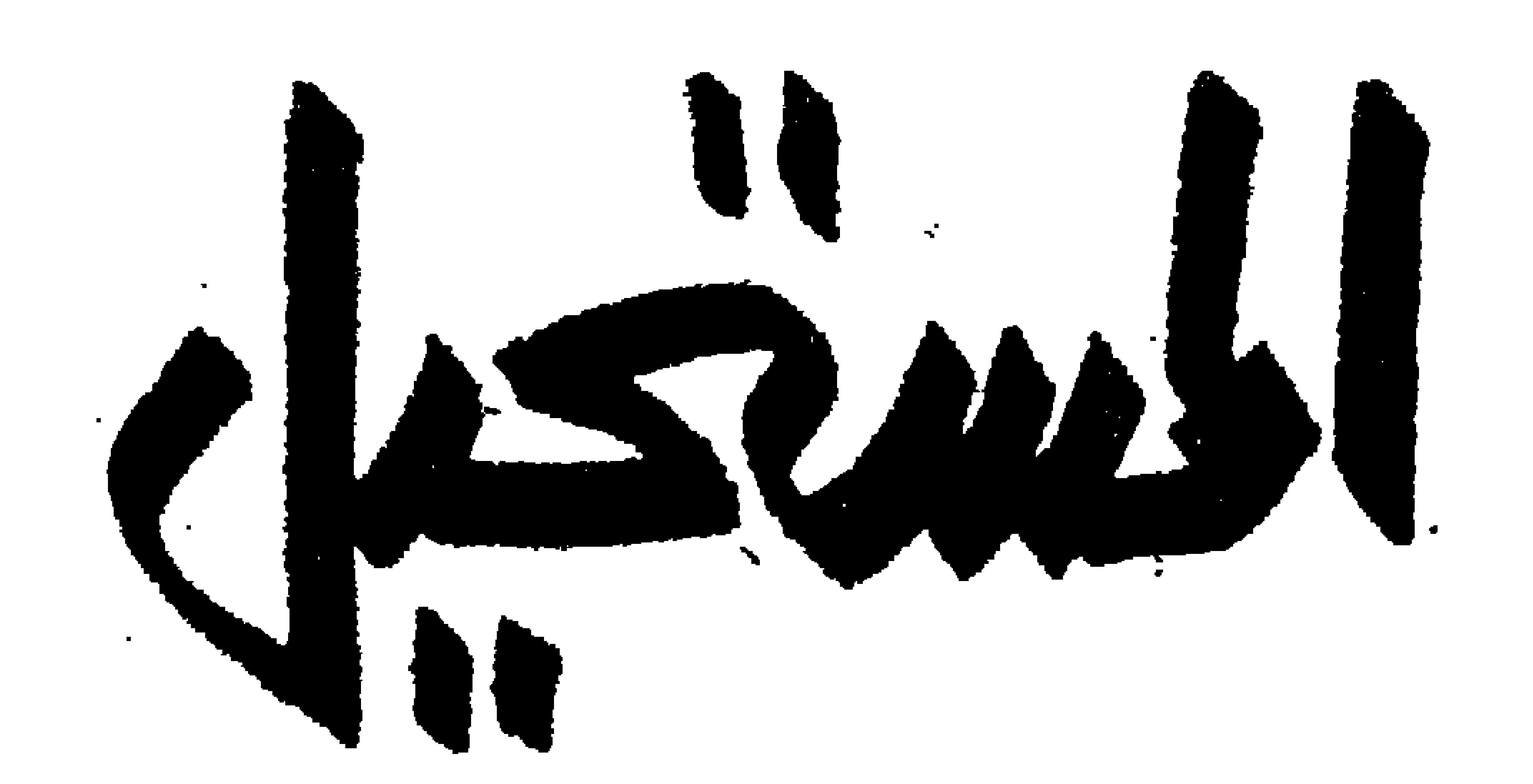
المؤلف



مصطفى محمود

- تخرج من كلية الطب بالقصر العينى فى ديسمبر ١٩٥٢ وتخصص فى الأمراض الصدرية . . ثم تفرغ للكتابة .
- كتاباته صدى مباشر لإحساسه بالحياة . . وفلسفته نابعة من التساؤل الذى تطرحه هذه الحياة فى مئات المشاكل الصغيرة حوله .
- لا يعتقد أن الحياة يمكن إخضاعها لمذهب أو نظرية . . فهى فوق كل المذاهب . . وأصل لها جميعاً .

مصطفى محمود



١٩٦٠

دار الجيل للطباعة
١٤ شارع قصر اللؤلؤة - الفجالة

— ١ —

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . .

والبيت خال . . زوجتى عند أمها . . وأنا جالس وحدى . . أنصت إلى صوت تنفسى البطىء فيخيل إلى أنه صوت رجل آخر غريب لا أعرفه . ويدهمنى شعور ثقيل مر بالغربة . .

هذا أول يوم أجلس فيه مع نفسى . . وأنظر وجهاً لوجه فى حياتى وأتأملها . .

أى حياة !!

إنى لم أعش أبداً . .

ليس فى حياتى يوم واحد أستطيع أن أقول أنه كان يومى . .

إنى لا أعيش . . ولكنى أتدحرج كحصاة كبيرة ثقيلة . . تسوقنى

الوظيفة إلى المكتب . . ويجرنى الزواج إلى البيت . . ويدفعنى الملل إلى المقهى.. ويلقى بى الجوع إلى مائدة الطعام .. ويقهرنى الغيظ على التدخين . ويقذف بى التعب إلى الفراش .

خمس وعشرون عاماً مرت من عمرى كأنها لا شيء . . أزددت فى الوزن . . فى الطول . . فى العرض . . ولكنى لم أزدد فى الحياة .

سنة بعد سنة وأنا أغوص فى أرض رخوة من الأوامر والواجبات . والكلمات الغريبة . .

الواجب .. الأصول .. تقاليد العائلة تحتم .. مركز والدك لا يسمح سنك لا يليق فيه كذا . . كرامتك . . ماذا يقول الناس .. كيف تكون نظرة المجتمع إلينا . . الإحترام . . الوقار يا أخى . .

حتى الجاكتة التى ألبسها كانت مسكينة مثلى بلا شخصية . . تطول وتقصر وتتسع حسب الموضة .. لا بإرادتى . . ولا بإرادة الترزى . . ولكن بإرادة التقاليد . .

فى وقت ما كنت أمسك فى يدى منشة .. وفى وقت آخر كنت أمسك عصا . . وفى وقت ثالث كنت ألبس طربوشاً .

والآن تضع لى زوجتى منديلا فى كمى .. وتحرّم علىّ لبس الطربوش كل هذه الأشياء كانت فى الحقيقة تلبسنى . . ولا ألبسها .

والحياة كلها كانت تلبسنى . . وحركاتى تلبسنى . . وأنا أتضاءل سنة بعد سنه تحت الردم . . تحت ركام من كلمات كبيرة لزجة .

أذكر هذا الآن وأنا أتلفت حولى فى حياتى . . فى الغرفات الخمسة

التى أسكنها .

إنها غرفات غريبة . . ضيقة . . وسقفها منخفض . . وكل منها توصل إلى الأخرى . . وهذا ليس ذوقى . . فأنا أحب الغرفات الواسعة ذات السقف العالى التى تفصلها الممرات والصالات .

وهى غرفات تضربها الشمس من اليمين والشمال . . وأنا أحب الغرفات الرطبة الظليلة .

إن البيت لا يبدو كأنه بيتى . . لقد اختاره والدى . . اختار المكان والأرض . . وبنى البيت حسب إرادته .. وفصّله حسب ذوقه .. واختار الأثاث قطعة قطعة .. حتى الصورة الكبيرة .. النسخة المنقولة عن صورة الجيوكندا لدافنشى .. هو الذى اشتراها بنفسه وأهداها لى بمناسبة زواجى ووضعها فى الصالون وقال أنها مثال للذوق الرفيع فى الفن .

وشعرت من البداية أنها صورة سخيفة قاتمة . . وأن دمها ثقيل . . ولكنى لم أتكلم . . لأنى رأيت من الواجب أن أكون مؤدباً . . وأن أجامل والدى فى هديته وأمتدح ذوقه . . فقلت له : نعم .. أنت على حق إنها رائعة .

وقال فى زهو العارفين :

— أنظر إلى اليدين جيداً .

ونظرت إلى اليدين جيداً . . فلم ألحظ شيئاً . . وقال فى انتصار :

— إنهما تبتسمان . . أنظر . . هذا هو الإعجاز فى اللوحة . . إن الرسام رسم اليدين تبتسمان . .

إن فى اللوحة كلها ابتسامة غير منظورة لقد كان الرسام يجلب معه كل يوم فرقة من العازفين لتعزف للجيوكندا وهو يرسمها ليدخل فى قلبها السعادة فتبتسم . . وأنت تحس بالموسيقى . . وتسمعها وأنت ترى اليدين فى وضعهما الجميل الباسم .

وأكبرت فى والدى هذا الإحساس المرهف . . وإن كنت لم ألحظ أنا أى شىء غير عادى فى الصورة . . وظللت أعيد على كل ضيف يزورنا هذه القصيدة . . عن الإبتسامة غير المنظورة . . والموسيقى . . والإعجاز فيهز رأسه تماماً كما هززتها ويقول فى آلية . . يا سلام . . حقاً إنها رائعة . واليدان تبتسمان . . تماماً . . يا سلام . .

ويروح بدوره يحكى القصة لصديق آخر .

وظللت على إكبارى لوالدى . . وذوقه . . ونظرته العميقة الناقدة حتى قرأت مصادفة . . وفى مجلة قديمة . . كل هذا الكلام بالنص . . عن الإبتسامة غير المنظورة والموسيقى فى اليدين . . والإعجاز . . إلخ . إلخ . ولا أدرى لماذا أحسست فى تلك اللحظة أن الحكاية كلها كلام فارغ متوارث روته الصحف وتناقله القراء . . كل قارىء يردده على أنه رأيه الخاص وذوقه .

وظللت من يومها أشعر بالغيظ كلما رأيت الصورة مدلاة من الجدار فى غرفة الصالون . . وأشعر أنى لم أقل رأيى أبداً فيها . . وأنى عشت أردد كلمات غريبة عنى طول عمرى .

وكان من عادة أبى أن يزورنا كل يوم جمعة ليطمئن علىّ . . هكذا

كان يقول . . ولكني أعتقد الآن أنه كان يفعل هذا ليطمئن على نفسه ليرى أن أوامره ما زالت نافذة . . وملاحظاته محمول بها . . الدواليب مغلقة بالمفاتيح . . والمفرش المشمع موضوع على مائدة الطعام . . وأصيص النعناع في البلكون . . والنوافذ كلها مفتوحة لتدخل الشمس . . وأول شيء ينظر إليه عند دخوله هي النوافذ . . فإذا رأى الشيش مغلقاً فتحه على مصراعيه وهو يصيح :

ـــ الشمس يا بني الشمس . . هذه شمس لا مثيل لها في الدنيا . . إنها أحسن دواء للروماتزم . . إفتح الشباك عندك . . أنا قلت ألف مرة افتحوا كل الشبابيك . .

ويتمدد في الشمس يطرقع مفاصله . .

وأبي كان دائماً يشكو من الروماتزم . . ولهذا كان يفتح الشبابيك في بيوت أولاده . . في كل وقت . . وفي كل فصل من فصول السنة . . ولو استطاع لسقانا فنجاناً من السلسلات ثلاث مرات في اليوم كما كان يفعل .

ولم يكن يجدي أن نحتج ونقول أننا أصحاء . . وأننا لسنا مرضى بالروماتزم . . فمعنى أن يكون أبي مريضاً بالروماتزم . . أن نكون جميعاً مرضى بالروماتزم . . فأبي مفتش تركي فيه كل أخلاق الأتراك ودماغهم الناشف . . وغرامهم بالأمر والنهي .

وكان يعاملنا نحن أولاده كأننا تكية . . ويعيش حياته ويعيش لنا حياتنا أيضاً .

لم يحس واحد منا في أية لحظة بأن له كياناً مستقلا .

أذكر حينما كنا صغاراً أن أبي كان يحب الشاي فكنت أشرب معه الشاي . وحينما تقدمت به السن ومرض بالضغط وحرم عليه الطبيب شرب الشاي . أصبحت أشرب الينسون .. لأنه أصبح يشرب الينسون .

وظل سلطانه يحلق فوق رأسي حتى بعد أن جاوزت سن التلمذة وتخرجت من المدارس لأعيش بإيرادى الخاص .

كنت أستشيره من تلقاء نفسي كلما وقعت فى مشكلة .. كان الخوف ما زال فى دمى .. الخوف من الدنيا .. ومن المرأة .. ومن أن أحسم أمراً بإرادتى .. وبدون مشورته .

كان قلبي تأكله الرغبات من الداخل ولكنى لم أكن أجرؤ على التفكير فيها وإشباعها .. وإنما كنت أتردد وأخاف وأجزع ثم أكتفى بأن أتمنى ثم أهرب من المشكلة كلها وألوذ بوالدى أطلب نصيحة .. وأترك له حياتى يبت فيها ويختار كما يشاء كأنه الله أو القدر .

وهكذا ظلت حياتى معطلة طوال هذه السنين .. وظللت أعيش طفلا كبيراً .. يملأ قلبي الخوف والإحترام والرهبة ..

ولو سألتنى إن كنت أحب أمينة زوجتى .. لما وجدت جواباً .. فأنا لم أحبها .. ولم أكرهها .. ولم أخترها .. وإنما هى كصورة الجيوكندا وضعها والدى فى بيتى .. وقال إنها جميلة ورائعة .. فقلت خلفه كالطفل جميلة حقاً .. ورائعة .. واحتضنتها كما أحتضن كل كلمة يقولها أبي .

ولكن بقدر الراحة التى كنت أحسها فى هذا الحب إلا أنى كنت أحس أنه ليس حبي أنا .. وإنما هو حب أبي وذوقه واختياره ..

كان كل شيء حولى لا يمت لى . . كان كل شيء غريباً عنى . . حتى ملابسى . . حتى أفعالى . . حتى أقوالى كانت غريبة عنى .

ولكنى لم أكن أدرك مشاعرى بهذا الوضوح فى البداية . . لم تكن فى ذهنى فكرة واضحة عن شيء . .

كنت أعيش فى فتور وآلية . . وبلادة . . واستسلام . . حتى مات أبى فجأة . .

وأفقت لأجد نفسى وحدى . . بدون سند إلى جوارى . . بدون قدر . . بدون إله . . بدون حب . . بدون مبرر لأى فعل أفعله سوى إرادتى .

وأين هى إرادتى ؟ !

لقد كنت أتردد ثلاثة أيام متتالية فى توقيع شيك . . وأنظر فوق كتفى بين لحظة وأخرى . . أنتظر أن يظهر والدى فجأة لأسأله . . هل من الصواب أم الخطأ . . توقيع هذا الشيك .

ولم يكن هناك حل . .

كان لا بد لى أن أحمل أعبائى بدون معونة أحد .

وكان هذا يسبب لى قلقاً حاداً قاسياً يحرمنى النوم .

لقد بلغ ميراثى وحدى من تركة بى مائة فدان غير العقارات والأملاك وسندات البنوك . . وهى ثروة كبيرة فوجئت بها .

وكان معنى هذه الثروة أن أذهب فى عشرات المشاوير كل يوم . . إلى البنك . . وإلى البلد . . وإلى البورصة .

وفى كل مشوار من هذه المشاوير أقابل ناساً لا أعرفهم . . أناقشهم

وأوقع على أوراق .. وأمضى على عقود . وأبدأ صفقات . وأنهى صفقات .

وفى كل لحظة من هذه اللحظات أشعر أنى وحيد متردد خائف .

وأعود من البنك مبلبل الذهن .. فى ظنى أنى قد نسيت شيئاً .. وقعت فى خطأ ما .. أو تورطت فى إجراء غير قانونى .

ولكن بمرور الأيام بدأت أكتشف أن المال فى البنوك والإدارات المالية يحفظ نفسه بنفسه .. وإنى لست فى حاجة الى ذكاء كبير لأضاعف أموالى .. فالأموال تتضاعف من تلقاء نفسها فى العقارات والأراضى والبنوك .. وما علىّ إلا أن أذهب أول السنة لأجمع الأرباح وأوقع فى دفتر .. وبدأ الخوف يزايلنى ..

وبدأ ذهنى ينصرف إلى أفكار أخرى ..

أفكار لا علاقة لها بالأرض .. والبنك .. والمرحوم والدى ..

أفكار لها علاقة بى .. أنا .. !! ..

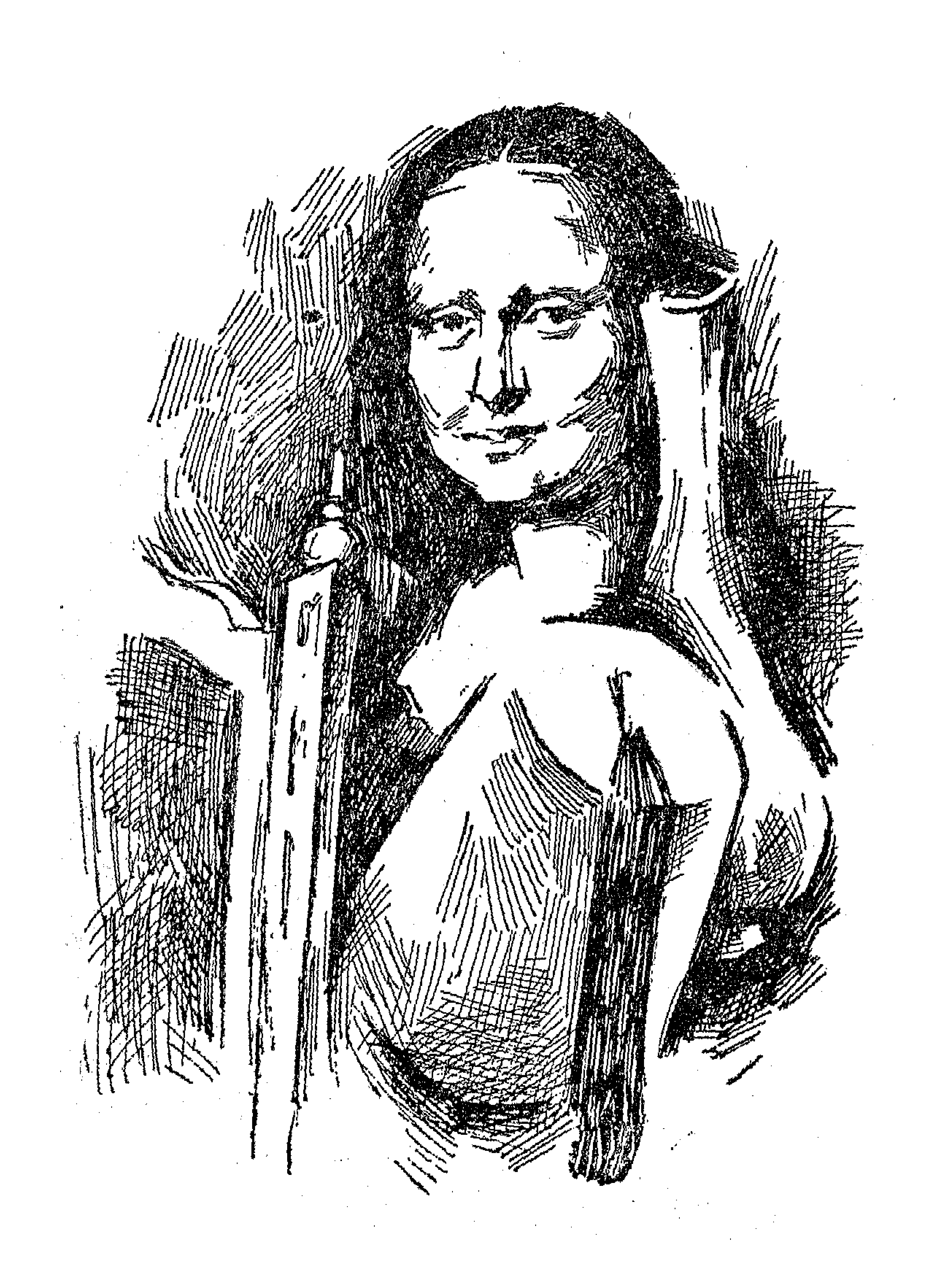
وحينما أحضرت لى زوجتى كوب الشاى منذ أيام .. وقلت لها :

أنا لا أحب الشاى ..

نظرت إلىّ فى دهشة واستفهام .. فهى لم تتعود منى أن أقول .. أنا .. لا أحب ..

تعودت أمينة أن آكل ما تقدمه .. وأشرب كل ما تقدمه .. ولكنى قلتها ..

قلت . أنا لا أحب .. وأنا أشعر بدهشة أنا أيضاً .. لأنى أقول ما فى نفسى لأول مرة بدون أن ألقى بالا لأحد ..



واكتشفت فى ذلك اليوم عندما دخلت غرفتى وجلست على مكتبى .. أنى لا أرفض الشاى وحده .. ولكنى أرفض معه أشياء أخرى كثيرة ..

أرفض بيتى وحياتى .. وأتمنى أن أصرخ فجأة .. لأقول لزوجتى أنا لا أحبك . وأقول عن حياتى إنها سخيفة .. وأنزع الصورة المدلاة من الجدار .. وألقى بها فى الشارع ..

ولكنى لم أجد الجرأة على أن أقول كل هذا ..

واكتفيت أن أرفض الشاى فى عصبية .. وأزيحه من أمامى .. ثم أشعل سيجارة ..

وعادت حياتى فجأة أمامى .. كشريط سريع .. حياة سخيفة مثل لحية مستعارة .. ليس فيها ملامحى .. ليس فيها .. أنا ..

وشعرت بشهوة الطفل فى تحطيم أى شىء .. والجرى إلى الخلاء .. إلى الهواء الطلق .. والعربدة .. والضحك .. والبكاء .

شهوة ملحة فى أن أبسط أجنحتى التى كانت مضمومة طوال هذه السنين .. وأحلق بها كالطائر ..

وتدفقت أيامى كلها .. تطالب بحقها فى أن تعيش من جديد .. طفولتى .. صباى .. شبابى ..

ثم عاودنى الجبن .. وتيقظ خوفى القديم .. وأمسك بعقالى .

وسكت على مضض .. وأنا ألوك فى فمى آلاف الكلمات ..

ولكنى أحسست أنى تغيرت .. وأصبحت شخصاً آخر غير حلمى القديم ..

عرفت لذة التمرد . .

وظل هذا الإحساس يلازمنى . . وأنا أدخل إلى البورصة . . والسيجارة مازالت فى فمى . . وعيناى تقرآن الكلمات المكتوبة على السبورة فى الدوز العلوى . .

حركة الأسعار . . نوع الأوراق المالية . . أسعار الفتح . . أسعار الاقفال ..

وأذنى تلتقط صيحات السماسرة حادة مختلطة . . سيجورات ٨٤٢ سيلوس . . سيلوس..التعدين ٤٠٠ بايع . . بايع . .

المناجم ١٢٨ . . الملح . .الملح . . شارى .

أسمنت طره ٩٧٠ . ماتكسا . . ماتكسا . . بايع .

والأيدى تلوّح . . وتشتبك .

والأصوات الحادة ترن فى أذنى كأصوات القطط . . وهى تتعاوى على صفيحة قمامة . . وعيونها تشع ضوءاً أخضر مخيفاً . . ناو . . ناو . . نو . . غو . . غو . .

ورأس الخواجة مترى التاجر العجوز ووجهه الأبرص المرقط بالبياض يذكرنى بوجه قطتنا . .جيجى . .

وأنتقلت عيناى فى آلية لتقرأ على لوحة أخرى . .

كنتراتات أقطان طويلة التيلة . . فولى جود . .

وسمعت الخواجة مترى يتحدث ويلوّح بيده .

— يا حبيبى الدنيا هنا مجازفة . . اللى عاوز يكسب لازم يجازف ..

يرمى نفسه .. اللى يخاف هنا يموت ..

ووقفت خائفاً فى ركن أطلب نصيحة الخواجة مترى قبل أن أبيع أوراقى ..

وأشار علىّ بصفقة صغيرة ..

وأمسكت بقلبي لأوقع الإذن .. وأحسست برعشة التحدى تنتقل إلى بالعدوى من الجو المكهرب حولى .

كان كل واحد يتنمر .. ويتلظ على المكسب ..

وأخذت أنا الآخر .. أتلظ .. وأتنمر .. وأتنمر .. وأتتبع أسعار أسهمى وهى ترتفع .. وتقفز من رقم إلى رقم على التابلوه . . وأتتبع الطباشيرة وهى تكتب ١١٢ —١١٤ — ١١٨ — ١٢٠ — ١٢٢ — ١٢٣ ثم تتوقف ويصرخ السمسار بأعلى صوته ١٢٣ — ١٢٣ .

وترددت . . لا من الخوف . . ولكن من الطمع .

لقد ارتفع السعر ١١ بنطا فى يوم واحد . . فما بالى لو انتظرت يومين آخرين ..

وشعرت بطمعى يتغلب على خوفى .. وشعرت بإحساس الطفل الذى تزوغ عيناه أمام دكان الحلوى ..

وغمزنى الخواجه مترى لكى أبيع .. ولكنى لم أبع ..

وحينما خرجت فى ذلك اليوم . . كنت أشعر بشىء جديد غامض يدخل حياتى . . كنت أحس بنبض الحماس والجرأة يتسلل إلى عروقى . . وكنت أشعر بحياتى القديمة تسقط عنى شيئاً فشيئاً كالرداء .. وتبدو غريبة ..

زوجتى .. بيتى . . فنجان الشاى الذى أرشفه على الفطور . .
أصوات الشارع الأليفة وهى تعلو فى الصباح تحت نافذتى . . همهمة أم حسن خادمتنا العجوز على سبحتها . . ودعاؤها لى بطول العمر . .

كل هذا كان يبدو لى فى تلك اللحظة كحلم غريب غير حقيقى .

لقد تغيرت .

كان هذا الإحساس يسعدنى .. وكنت أحتفل به فى قلبى ..

* * *

وحينما خرجت من السينما فى الثانية عشرة لم أشعر برغبة فى العودة إلى البيت ..

ورأيت قدمىّ تسعيان على غير عادتى الى ملهى ليلى ..

ودخلت فى وقت كانت الراقصة فيه تلوّح بشالها . . وتتمايل .. وتتأود .. وتنام على ظهرها .. وعازف الطبلة يقفز حولها كالقرد ..

ولفت نظرى أن كرسى عازف الطبلة عليه شلتة ولا أدرى لماذا خطر لى أن عنده بواسير . .

وضحكت طويلا لهذا الخاطر السكران . .

ولم أكن قد ذقت قطرة خمر . . ومع هذا كنت أشعر أن رأسى مشعشعة خفيفة . . وكنت أرى سببا للضحك فى كل شىء حولى . .

وبدت لى حركات الطبلى مثيرة للضحك . . وكان كلما مد يده خلفه ضحكت . .

وحينما تركت الملهى فى ساعة متأخرة من الليل فضلت أن أعود إلى

بيتي ماشياً . .

وكنت اجد للهواء طعماً لذيذاً فى رئتي . . وكنت أستنشقه فى بطء . . ويداى فى جيب بنطلونى . . وفمى يصفر أغنية شعبية . .

وكان كل واحد يمر بى . . يبتسم .

وحينما فتحت باب شقتى فوجئت بزوجتى تقف أمامى شاحبة حمراء العينين قلقة . . تهتف فى صوت خائف :

ـــ أين كنت طول الليل؟

وتذكرت فجأة أن الساعة الثالثة صباحا . . وأن هذه هى المرة الأولى التى أسهر فيها إلى هذه الساعة المتأخرة . .

ومسحت على وجهى بيدى . . وأنا أفيق . . وأعود شيئاً فشيئا إلى نفسى القديمة . .

وتمتمت بكلام لا أذكره . .

وخلعت ثيابى . . وتناولت عشائى وأنا صامت . . لم أكن سعيداً بعودة هذه النفس القديمة .

وبدا لى فى تلك اللحظة أنى هبطت فجأة من السماء إلى الأرض .. وعدت إلى الحياة . . كإنسان ميكانيكى يدور بزمبلك . .

وناولتنى زوجتى خطاباً عليه طابع دمشق . . ونظرت فى الخط . . وأنا أتساءل . . من الذى يرسل إلىّ خطاباً من دمشق . . ووضعته فى جيبى . .

وفى الفراش مددت يدى إلى الخطاب وفتحته لأقرأ هذه السطور . .

عزيزى حلمى . .

لعلك لاتذكرنى الآن وأنت تقرأ التوقيع .. فقد مضى على افتراقنا سنوات طويلة .. ولكنى أذكرك . . . وأذكر معك أجمل أيامى .. حينما كنا نلعب أنا وأنت وأختى صافى فى عزبة والدى ونحن صغار . . ونجرى فى دائرة حول النورج . . كل منا يمسك بذيل الآخر .. وأذكر أيام زمالتنا فى المدرسة الابتدائية .. وأيام هروبنا معاً .. حينما كنت تخاف وتعود إلى المدرسة وأمضى أنا وأختى صافى لنقضى اليوم فى حديقة الحيوان . .

واليوم جلسنا نتحدث عنك أنا وأختى . . وفكرنا أن نلتقى ثانية . . لنتعرف على ماضينا الحلو . . ونعيد أيامنا الجميلة ..

إننا نعيش الآن فى دمشق ولنا أملاك وأراض هنا .. ونحن ندعوك لقضاء شهر فى ضيافتنا .. ولنا أمل كبير فى قبولك هذه الدعوة . .

ونحن فى انتظار اليوم الذى تحدده .. وإلى أن نلتقى لك حبنا وأخوتنا .

« فؤاد »

وشعرت بموجة من السرور .. وأنا أقرأ الخطاب .. وأعدت قراءته وأغمضت عينى ..

سوف أذهب إلى دمشق . .

وأخلع ردائى كله . . أخلع عنى هذا البيت العتيق بأركانه المظلمة .. وأخلع عنى القاهرة كلها . . وأخلع حياتى . . وعاداتى . . وكلماتى . . التى أقولها كل صباح . . وأعيش .

وشعرت بدغدغة النشوة فى كل جسدى . . ونظرت إلى زوجتى فرأيتها تنظر إلىّ باستغراب .. وتسألنى عما فى الرسالة . .

ولم أجب . . وتناومت . . فأحاطتنى بذراعيها . . ولكنى لم أشعر بالرغبة فيها .

وأحسست بأطرافى تبرد وتتثلج تحت لمستها . . وأدرت لها ظهرى وبدأت أتخيل صافى . . وجهها التركى الأبيض . . وضفيرتها الذهبية . . وعينيها الصافيتين مثل كأسين من عسل النحل .. وذراعها البض مثل عود الغصن الطرى .

وتدفقت الرغبة جامية فى عروقى . . وأحسست بلهب الجنس يحرق دماغى .

ولكنى أخفيت هذه الرغبة كأنى أخفى سراً .. وضننت بها .. وتركتها تغلى فى دمى . . وتؤرقنى . . مثل سر لذيذ جداً . . وظللت أحلم .

وكانت زوجتى تتحدث . . ولم أكن أسمعها .

كنت أنظر إلى فمها وهو ينفتح وينغلق . . وإلى كتفيها العريضين .

ودقت ساعة الحائط أربع دقات .. وثقل قلبي فجأة وعاودنى الخوف وأحسست أني ضعيف . . وأن الساعة تدق منذ خمس وعشرون سنة . . وأنا فى بيتى لا أبرحه .

وداهمنى شعور بالتردد . . شعور من يمد رجله ليخطو خطوة واسعة فى الظلام .

— ٢ —

تيقظت فى الصباح وقد نسيت كل شىء . . وفى اللحظة التى كنت ألبس فيها ثيابى . . كنت أدخل فى عاداتى القديمة فى نفس الوقت .. وكانت زوجتى تمر بالفرشاة على نفس الأماكن من القماش التى تعودت أن تمر عليها كل يوم .. حول الياقة . . وعلى الاكتاف . . وعلى الظهر والأكمام . . وثنية السروال ، ثم تنصحنى كعادتها أن آخذ بالى من الطريق وتنظر إلى نفس النظرة الحنونة . . وأم حسن تجرى خلفى وفى يدها الحقيبة . . والباب يزوم كعادته دائما كل صباح ليشكو من رطوبة مفاصله . . وحارس المصعد يرفع يديه الاثنتين لتحيتى . . ويفتح فمه فى بلاهة فتبدو سنته الذهبية . . نفس السنة الذهبية ذات الطربوش المكسور التى أصطبح بها كل يوم .

وجلست فى العربة .. وتصاعدت إلى أنفى رائحة البنزين .. وسمعت صوت الموتور .. ورأيت واجهات المحلات تتحرك فى الزجاج وتختفى .. ولكن أذنى ظلت تردد جملة واحدة طول الطريق .. جملة قالتها زوجتى وهى تعطينى المنديل .

لاتنس أننا سوف نحتفل اليوم بعيد ميلاد إبننا ..

جملة غريبة فى هذا السيل من الحياة العادية ..

ظلت ترن فى أذنى طول الطريق .. وأنا أحس أنها جملة ظريفة .. وأتذكر احتفال السنة الماضية .. الذى لم يحضره أحد سواى أنا وزوجتى وأبى .. وكيف كانت زوجتى غاضبة لأنها لم تدع صديقاتها وأبى غاضب لأنها تناقشه وتريد عزومة الناس .. وماذا وراء عزومة الناس إلا الحسد .. وأنا آكل من التورتة ولا أفكر فى شىء .. وإبننا يصرخ فى الغرفة ..

ولكنى الآن أفكر فى أشياء كثيرة .. وأنتظر هذا الاحتفال بشوق .

وكلمات زوجتى ترن فى أذنى كما ترن بشرى العيد فى أذن طفل .. وإحساسى بالنزق يدفعنى إلى الضغط على الكلاكس .. والعبث .. وأنا أسوق .. والتأرجح يميناً .. ويساراً ..

اليوم نحتفل ..

أنا أشعر بانبساط ..

وتوقفت عند دكان لعب .. واشتريت قرداً بزمبلك يقفز ويصفق بيديه .. واشتريت ورقا ملوناً .. وصواريخ ..

وتوقفت مرة أخرى عند محل ورد ..

ثم عدت أستأنف سيرى .. وأسلم نفسى إلى حياتى العادية .. وعلى شفتى ابتسامة ..

وفى المساء حينما عدت إلى البيت .. دخلت غرفتى وأنا أصفر .. ثم أغلقت الباب .. وأخرجت القرد وأدرت الزمبلك .. ورحت أتفرج عليه وهو يقفز ويصفق بيديه حتى توقف .. ثم أدرت الزمبلك مرة أخرى .. ورحت أتفرج ..

ونسيت أنى قد أحضرت اللعبة لطفلى .. ورحت ألعب بها ..

ولكن زوجتى التى تسللت من الباب الموارب وجاءت تستطلع .. ووقفت تتفرج خلفى .. ما لبثت أن هتفت فى دهشة أيقظتنى :

— أنت الذى تلعب .. غير معقول؟

وضحكت وأمعنت فى الضحك ..

ومع هذا .. فقد أمسكت هى الأخرى بالقرد .. ثم بدأت تدير الزمبلك .. وتلعب ..

ثم قالت فجأة فى مرح :

— إن حفلة اليوم ستكون ظريفة .. لقد دعوت جيراننا .. ودعوت صديقتى فاطمة ..

ورفعت رأسى عند ذكر الاسم ..

وكنت أسمع منها دائماً حكايات كثيرة عن صديقتها فاطمة المحامية .. ولكنى لم أكن قد رأيتها أبداً .

وكانت كثرة ذكرها أمامي ... وورواية حكاياتها .. قد جعلت لها شخصية فى ذهنى .

وشعرت بسرور خفى ..

وعدت أملأ الزمبلك .. واتفرج على القرد .. وهو يقفز .. ويصفق بيديه ...

* * *

لأول مرة كنت أشاهد كرسى الصالون من غير بياضات هذه الليلة.. وقماش الطقم يلمع فى ضوء النجفة الكريستال ..

وكنت أتحسس قماش الطقم فى لذة . . وأختلس النظر إلى الضيوف .

كانوا ثلاثة. جارنا الأستاذ عزيز . . وزوجته نادية .. وفاطمة المحامية .

وكنت أختلس النظر إلى فاطمة وأتتبع حركاتها فى اهتمام . .

وأجد من الصعب الآن أن أصف إحساسى بها لأول مرة .

كان إحساسى حينما أمسكت بيدها لأصافحها أنى أمسك بأصابع خالية من العظم . . وبشرة ملساء فيها ملاسة حيوانية كأنها جسم «عرسة » .

وكان صوتها المبلل وهو يحادثنى فيه لزوجة تلتصق بالأذن وبالأعصاب .

ولم تكن جميلة . . ولكن جسمها كان فيه بضاضة . .

وكان صدرها يكظ من فتحة ثوبها . . وكانت أردافها تضغط على الفستان .. وكانت استدارة كتفها وهى تختفى تحت الحرير الأسود المطرز تثير الخيال والتصور . . وتغريه على تتبع هذا الإنسيال . .

وكان تكور بطنها تحت الفستان يوحى بأن لحمها ليس فيه ثنية واحدة وأنه مشدود متوتر . . فائر . .

وكانت عيناها فيهما بريق . . يومض . . وينطفىء . . حينما ينعكس عليهما الضوء . . وهى تتلفت . .

وكانت في شخصيتها جرأة واقتحام . . وكانت في كلماتها مبادرة غير عادية في النساء .

كانت على عكس زوجتي تماماً . .

وكانت زوجتي سعيدة بها جداً . . فخورة بشخصيتها وجرأتها .

وكانت تقول وهي مبهورة :

ــ هذه هي رائدتي . هذه هي القائدة التي كانت تتزعمنا في المظاهرات وفي الإضرابات . . وكانت خطيبة المدرسة الرسمية . . وكانت رئيسة الإخوات المسلمات . . ورئيسة فرقة التمثيل . . ورئيسة كل حاجة .

ــ فعلا . . إن مخايل الزعامة تبدو عليها .

كنت أقول هذا وأنظر إليها .. فتبادلني بنظرة ثابتة وعينين فاحصتين لا تطرفان حتى أنكس بصري . . فتلاحقني بكلماتها وصوتها المبلل . . وتبادرني قائلة في تحد .

ــ مالكم دائماً تصابون بالدوار حينما تسمعون عن امرأة . . تقود وتأمر . .

فأقول وأنا أحاول أن أثبت نظرتي في عينيها .

ــ لأن المرأة تقود وتأمر فعلا بدون حاجة إلى مظاهرات وإضرابات وخطب .. لأننا نحبها ونسلمها ذقوننا . . فيصبح الرأي رأيها والكلمة كلمتها .

ــ أنا أرفض هذه القيادة التي أفوز بها لمجرد تنازلكم . . إنه غرور منكم أن توقفوا حياتنا على حبكم . . أنا أيضاً لي غروري . . أنا أريد أن

أغتصب حقى بيدى . . وآخذه رغماً عنكم .

ــ أتسمع الكلام .

وتصفق زوجتى فى سرور وإعجاب .

ــ أتسمع الكلام . . هذه هى المرأة الجديدة التى سوف تريكم مقامكم ..

ــ إنها لن ترينا مقامنا . . وإنما هى سوف تسعى إلى حتفها بيدها.. سوف تتحول إلى رجل .. وسوف نرحب نحن بأن نصبح نساء . نجلس فى البيت ونأخذ نفقة ومؤخراً ومقدماً وشبكة وبذلات أنيقة وكرافتات سولكا لأعياد ميلادنا . . إنها ورطة يسرنا أن تقعن فيها . أنا لا أمانع شخصياً فى أن أنام فى البيت وأتنازل لكن عن الشقاء وعرق الجبين . .

ــ أتظن أنه يمكن أن أتحول إلى رجل . . إنى أعمل منذ خمس سنوات . . أتظن أنى أصبحت رجلا . . أنظر جيداً .

وترمقنى برمش عينيها فى دلال . ويقهقه الأستاذ عزيز .

ــ إنك لا تغلبهن يا صاحبى . . أسمع نصيحتى . . إن الطريق الوحيد لتغلب المرأة هى أن تجعلها تحبك . . وحينما تحبك سوف تقتنع بكلامك . . وتكف عن مناقشتك . .

ــ لماذا تصرون على تصويرنا هكذا فى صورة مخلوقات عقولها فى عواطفها . . مخلوقات لا تفهم ولا تعقل . . ولا تحركها إلا نزواتها . أنتم واهمون . نحن الذين ضحكنا عليكم ..وروجنا هذا الوهم ..وأدخلنا

فى ذهنكم أننا مخلوقات عاطفية قليلة الحيلة . . وأنكم شطار وأقوياء . . ضحكنا عليكم بهذا الكلام الفاضى لنأكل عقلكم ونأخذ ما نريده . . تماماً كما نفعل مع أطفالنا ..

وتصفق أمينة وتقف وتجاس فى سرور .

— أتسمعون ؟ ! لقد ضحكنا عليكم كما نضحك على أطفالنا .

ويقهقه الأستاذ عزيز ويمسح على رأسه الأصلع .

— أنتن يا نساء لا تجدن إلا الثرثرة . . إن الله لم يقطع ضلعاً من آدم ويصنع منه حواء .. ولكنه فى الغالب قطع لسانه وصنع منه امرأة .

— وخصوصاً حينما تكون المرأة محامية مثل فاطمة . . إنها لا بد أن تكون مخلوقة من لسان ضانى أصلى .

— أنا شخصياً أعتقد أن الله قطع أصبع حواء وصنع منها آدم . . وما زالت المرأة إلى الآن تصنع الرجال بأصبعها .. إنها تشير فى أى مكان إلى الرجل فيتبعها وما يلبث أن يصبح زوجها . . وأنا فى المحكمة أشير بأصبعى وأنا أترافع . . وأنقذ أعناقكم يا رجال من المشانق . . هكذا بأصبعى فقط .

وتهلل أمينة فى سذاجة .. وهى تحتضن صديقتها . .

— أتسمعون . . بأصابعنا . . فقط ..

ويقهقه الأستاذ عزيز .

— لا فائدة من مناقشة امرأة . . إنك تلف وتدور . . ثم تسلم لها بكل ما تريده . . لأن دمها خفيف . ولأن لذة إرضائها تفوق لذة

الحقيقة . . أنا شخصياً أرفع الراية البيضاء . . وأسلم . .

ـــ برافوا يا فاطمة كسبنا القضية .

وتضحك فاطمة وتهتف . .

ـــ أشكرك . . والآن . . أين مؤخر الأتعاب .

ـــ لقد أعددنا لك عشاء شهياً . .

ـــ رائع . . يا أختى . .

* * *

وعلى العشاء كان فى إمكانى أن أراقب الأستاذ عزيز عن كثب . . وأتأمله . . وهو يتكلم . . ويأكل . . ويلوّح بيديه . .

والأستاذ عزيز قصير القامة . فى الأربعين . رأسه صلعاء فى منتصفها . ولكن الشعر الأبيض والأسود يكسوها من الجانبين .

وهو حينما يتكلم يلعق شفتيه بلسانه من لحظة لأخرى ثم يزم فمه . . فتبدو شفتاه رفيعتين جداً . . وفمه مرسوماً فى صرامة وقسوة .

وهو يتكلم بحدة . . ثم ينفجر فى الضحك من تلقاء نفسه . . ويقهقه بحدة أيضاً .

وطول الوقت كان عزيز لا يرفع بصره عن فاطمة . وكان يخيل إلىّ أحياناً أنه يأكل منها هى .. ولا يأكل من الطبق .. لأن الطبق كان يفرغ ولا يفطن إليه . . ويظل يحملق أمامه حيث تجلس فاطمة إلى جوارى . ونهداها الناقران ينصبان من صدرها فى تكور شهى رجراج . . وكنت أحس وهى إلى جوارى بملمس ذراعها .. وبذلك الشعور الأملس الحيوانى

الذى يتسرب إلىّ من جسمها الطرى الذى يشبه جسم « العرسة » .. فأشعر بالخدر وأترك كتفى لاصقاً بكتفيها ثم أعود فأتيقظ وأنفر بعيداً .. وأنظر إلى عزيز .. وهو يلعق شفتيه .. ويزم فمه .. ويموء كالقطة وهو يأكل ..

وكان الكلام يدور على المائدة عن المحاماة .. والمفارقات التى تلاقيها المحامية أثناء العمل ..

وكانت زوجتى تتكلم عن قضية الوقف التى رفعناها من سنين .. ولم نصل فيها إلى نتيجة .. وتقترح علىّ أن نسلم القضية إلى فاطمة .. لتعالجها بعبقريتها .. وفاطمة تبدى استعدادها .. ثم تنظر إلى ناحيتى وتهمس :

ــ آخذ فيها ألف جنيه ..

ــ أنا مستعد .. إكسبيها أولا وأنا أعطيك ألف جنيه .

ــ اتفقنا .. مر علىّ غداً فى المكتب . لنبدأ فى الإجراءات ..

ولا أدرى لماذا أحسست بالخجل فجأة .. كأنى طفل يأخذ ميعاداً غرامياً .. وضايقنى إحساسى .. ونظرت إليها فى رهبة من جانب عينى .

وضبطتنى وأنا أنظر إليها خلسة .. وابتسمت .. ثم ضحكت .. وأشرق وجهها بسعادة آثمة .. وغرور .. ضايقنى أكثر وأكثر .

وشعرت بالغيظ وبميل إلى السخرية منها .. فقلت وأنا أضغط على كلماتى .. كلمة .. كلمة ..

ــ أن كل أمنيتى الآن أن أعيش حتى يصبح كل القضاه نساء ..

وأشاهد فشل كل المحاميات بعيني .

وضحكت فاطمة وهرش عزيز رأسه . . بينما أردفت أنا فى هدوء :

ـــ إننا نحن الرجال الذين نكسب لكن القضايا . . أنتن تصعبن علينا ولو كنت قاضياً . . ووقفت أمامى تبكين حظ المتهم حتى بح صوتك . فإنى كنت أعطيك البراءة لمجرد الشفقة . . فأنتن مهما أخذتن الشهادات والدبلومات وارتفع صوتكن بالجعجعة . . ستات . . ولايا . .

فأجابت فاطمة فى بساطة .

ـــ حينما يصبح المحامى امرأة والقاضى امرأة فسيكون المتهم رجلا ولن تهمنا القسوة حينذاك لأنها ستقع على دماغكم . .

ـــ حينذاك سوف نترك لكن الدنيا . . ونذهب لنعيش فى القمر أو فى أى كوكب آخر .

ـــ حقاً ؟ ! . . أتستطيعون . .

وكانت تنظر إلىّ وكأنها تقول لى من طرف خفى . . إنك لا تستطيع حتى أن تترك الكرسى بجانبى . .

* * *

كنت أدخن بشراهة بعد العشاء . . وأنظر فى الركن حيث توجد زهرية كبيرة قديمة . . والضيوف من خلفى يثرثرون ويضحكون . . وفاطمة تحتضن ابنى وتقبله . . وصوت البيانو يعلو من أقصى الغرفة . . فأظن أنه الراديو . . لأن البيانو عندنا مجرد قطعة أثاث يغلفها التراب من سنين . . ولا يضرب عليه أحد . . ولكننى فوجئت بمدام عزيز جالسة

على كرسى البيانو تعزف . .

ودهشت لأنى طول السهرة لم أفطن إلى مدام عزيز . . لم أحس بها . . كانت موجودة معنا طول الوقت . . لكن بدون صوت . . لم تتكلم كلمة واحدة . .

وتذكرت أنها كانت تجلس عن يسارى على المائدة طول الوقت . . ولم أنظر إليها . .

وكان زوجها عزيز يقف على مقربة . . ينفث الدخان من سيجار ضخم . . وقال لى عندما رآنى . . أن زوجته نادية عازفة بيانو ممتازة .

وسمعت زوجتى تهتف :

برافو ياناني . . هذا عزف رائع . .

ورفعت نادية رأسها الصغيرة . . ونظرت إلينا . .

كان وجهها رقيقا صغيرا فيه طفولة . . وعيناها السوداوان فيهما قلق وشرود

وكان يخيل إلىّ أنها لا ترانا . . وأنها تنظر من خلالنا . .

وعادت إلى العزف . . واختفت رأسها الصغيرة خلف البيانو . .

أين سمعت هذه المقطوعة ؟ ؟ . .

واقتربت من البيانو . .

وكنت أرى شعرها المتهدل . . وكتفيها المنحدرين وجسمها الضئيل . . ويدها الصغيرة . . وهى تنتقل بسرعة على مفاتيح البيانو . .

وانتهت من العزف . . ورفعت رأسها ببطء . . ودارت ببصرها فينا . .

ومرة أخرى شاهدت عينيها السوداوين وذلك القلق المبهم . .



والشرود . . والضياع . . الكامن فيهما .

كانت تنظر إلينا كأننا غير موجودين . . وتتكلم فى همس . . كأنها تكلم نفسها . . وتبتسم ابتسامة فيها وجل وتردد .

وقال عزيز :

— إن زوجتى تقرأ كثيراً . . انها دودة كتب . .

واختفى صوته فى ضوضاء البيت . . ورنين ضحكات طفلى وهو يجرى . . وفاطمة تجرى خلفه . .

ومرت لحظة صمت . . وسعل عزيز سعلة حادة . . ثم عاد يحاول إشعال سيجاره الذى انطفأ .

* * *

فى تلك الليلة حينما أغمضت عينىّ لأنام . . حاولت أن أتذكر الوجوه التى شاهدتها فى الحفلة . . وجهاً . . وجها .. ولكنى لم أستطع أن أجمع أشتاتها من ذهنى . .

كانت صورة فاطمة تلح على خيالى وتتسلل إلى أعصابى ومعها تنميل يخدرنى كلى . .

صوتها المبلل . . وملمسها الناعم الحيوانى . . وصدرها النافر الرجراج . . والبريق المشع فى عينيها . . وشخصيتها الوقحة . . وكلامها المليء بالاستفزاز .

واكتشفت أنى نسيت تماماً أصدقاء دمشق . . ومشروع دمشق . . وانزلقت من ذهنى كل الرغبات وحل محلها شعور واحد مختلط . . هو فاطمه . .

اشتهاء . . ونفور . . وغيظ . . وخوف . . ورغبة فى فاطمة . رغبة فى إيذائها . .

كنت أتخيل أنى أمزق فستانها حتى تصرخ . . وتقول : ارحمنى .

ولكنها لم تكن تقول . . ارحمنى . . وانما كانت تضم أطراف جسدها العريان . . وتنظر إلىّ نظرة من هذه النظرات التى تبرق .

وكنت لحظتها أفيق من خيالاتى . . وأتذكر الميعاد الذى بيننا فيخفق قلبى بشدة . .

وتوترت أعصابى فلم أستطع النوم . . وظللت أحملق فى الظلام . . وأتقلب فى فراشى . . وأتململ . . وأتفخ . . ثم أحاول أن أطرد كل شىء من ذهنى لأنام .

وتضخمت أصوات الليل الخافتة . . فأصبحت جلية واضحة فى سمعى . . وبدأت أتتبع صوت قطرات الماء وهى تدق على الحوض . . وتكتكة الساعة . . وطنين موتور الثلاجة .

وتيقظت زوجتى وسألتنى إن كان هناك شىء يؤرقنى . . فقلت لاشىء . . القهوة كانت شديدة وهى التى نبهت أعصابى . .

وسمعتها تروح فى النوم من جديد . . وسمعت تنفسها يزداد انتظاماً وعمقاً كلما أوغلت فى النوم . . ثم أحسست بذراعها يحوطنى وينام وادعاً على صدرى . . وسمعت فمها يتمتم كلاما لم أتبينه . . لاشك أنها كانت تحلم حلماً رقيقاً حنوناً ..

وسألت نفسى فى تلك اللحظة .. ماذا أريد ..

ماذا أريد بنفسى ..

ها أنا ذا الآن زوج يتمتع بزوجة تحبه وطفل يعشقه .. وصحة وشباب ومال وجاه .. وها أنا ذا أتقلب على فراشى مؤرقاً كشخص مريض تلسعه الحمى ..

ماذا أريد .. ماذا أريد !!

وكان السؤال صعباً .. أصعب من الأرق ..

وشعرت بالصداع ..

وثقلت رأسى جداً .. ورحت فى النوم .. نوم قلق تشوشه الأحلام وكلها أحلام من نوع واحد .. يخيم عليها الخوف ..

فأنا فى مرة أركب تراماً فيخرج عن الخط .. وفى مرة أخرى أركب سفينة فتشرف على الغرق .. وفى مرة ثالثة أدخل الحمام فيسرق الخادم هدومى .. وفى مرة رابعة أذهب إلى المكتب فأكتشف أنى نسيت الحذاء .. وأنى سرت طول الطريق حافياً .. ينظر الناس فى وجهى باستغراب .

وأنا دائماً أقع من آخر دور .. ولا أصل إلى الأرض أبداً .. وإنما أظل أهوى من حالق فى ذعر أوشك على الاصطدام والتناثر كل ذراع فى ناحية .. ولا أجد شيئاً أمسك به .. ولا أحداً أنادى عليه .

وحدى ... وحدى .. فى الهواء .. بلا أرض .. أقف عليها .

لم يكن نومى نوماً .. كان عذاباً ..

كنت أعانى . .

وحينما فتحت عيني على ضوء النهار .. وشعرت بدفء البيت حولي . وسمعت ضوضاء الناس في الشارع .. شعرت كأني خرجت من جب مظلم تحت الأرض .. وأحسست بالراحة ..

ولكني بعد ذلك بساعة حينما وقفت أمام المرآة أتطلع إلى طولي وعرضي وأناقتي .. لم أستطع أن أنسى ذلك الإحساس الذي ظل يأكلني طول الليل .. بأني صغير .. وحيد ضائع في الدنيا .

كل هذا الطول والعرض لم يسترني وأنا نائم وظللت أنتفض من الخوف كطفل تركته أمه وحيداً في الظلام .

وحينما كنت أسير في المساء إلى مكتب فاطمة المحامية أحمل تحت إبطي ملفات القضية التي اتفقنا عليها .. عاودني مرة أخرى ذلك الشعور .

وأحسست أني أضرب الأرض بقدمي بشدة .. وأرفع رأسي في صرامة .. وأقطب جبيني .. لأبعد هذا الإحساس بالضعف .

وحينما دخلت مكتبها .. وقابلتني ضاحكة .. شعرت فجأة بالإرتباك ..

وسارعت إلى الملفات .. أفتحها .. وبدأت أشرح لها القضية التي حفظت كل تفصيلاتها .. وذاكرتها في البيت جيداً .

وظلت تصغي ويدها على خدها .. وعيناها مسلطتان كالمصباحين الكشافين على وجهي طول الوقت ..

وبعد فترة قضيتها في القراءة رفعت رأسي ونظرت إليها سائلا :

— هيه .. هل فهمت الآن المشكلة كلها ..

ولكنها انفجرت ضاحكة .. وأغرقت في الضحك .

— لماذا تضحكين ؟

— لأنك جد جداً . . ولو قدر لك أن ترى نفسك لضحكت أكثر مني .. إنك تدخل متجهما وفى يدك الملفات وكأنك النائب العام ثم تخبط الملفات على المكتب . . وتفتحها وتمضى فى القراءة بصوت عالى . ثم تسألنى فجأة كأنى تلميذة .. وتقول .. هيه .. هل فهمت . . أراهن أنك لم تفهم كلمة واحدة مما قلته .. لقد أضحكتنى يا شيخ . .

وتراخت أعصابى دفعة واحدة .. وأبتسمت رغماً عنى .. ووجدت نفسى أنظر لها فى استسلام .. وقد أيقنت أنى افتضحت .

وأخذت أتلهى بالنظر إلى الغرفة حولى . . إلى القماش الأزرق الذى يغلف الكراسى .. والأباجورة التى تتدلى على تمثال امرأة عارية .. وإلى عينى فاطمة اللتين يعربد فيهما الكلام . .

وكان واضحاً أننا نحن الإثنان لا نهتم كثيراً بأمر القضية .. وأننا كلانا نبحث عن مواضيع أخرى نتكلم فيها .

وقلت وأنا أشير إلى الأباجورة :

— أنت أيضاً تزينين غرفتك بتمثال امرأة عارية .. كنت أظن أن هذا الضعف فينا فقط نحن الرجال .

— لقد بحثت عن تمثال رجل عار فلم أجده . . إن الذنب ذنب النحاتين الذين لا ينحتون إلا النساء . .

وصبت لى الشاى فى الفنجان أمامى .. وبدأت أشرب وقد عدت إلى نفسى قليلا .. وزال عنى الحرج . فلم أعد بحاجة إلى الكذب . والكلام .. فى القضية ..

قضية إيه ؟!

وقلت وأنا أتلفت حولى :

— مكتبك جميل . . لا يبدو أنه مكان تناقش فيه القوانين . . إنه صالون . .

— إنى أحب أن أستمتع بحياتى وعملى .. إنى أحيط نفسى هنا بكل الأشياء التى أحبها .. وأنت تجد حولى كل شىء . . حتى الراديو .

وأخرجت راديو صغيراً فى حجم علبة السجاير .. وأدارته فخرجت منه الموسيقى .

— يا ترى بيتك جميل هكذا مثل مكتبك ؟ .

— أجمل بكثير .

— إن زوجك رجل سعيد .

وضحكت ضحكة جافة .

— زوجى .. لقد طلقت زوجى من زمان . . إن الحرية أجمل شىء فى الدنيا . . هل جربت حياة العزوبة :

— لا .

— أنت مسكين .. لقد ضاع نصف عمرك .. إن أجمل شىء فى الحياة أن تعيش لا تعرف ماذا يحدث لك غداً .

— ألا تخافين من كلام الناس .. وأنت تعيشين هكذا . . زوجة مطلقة فى بيت طويل عريض وحدك حرة كما تقولين ؟ .

— ومن هم الناس الذين أعمل حسابهم . . كل الناس كذابون . .

ثرثارون منافقون تافهون . . أنا أعطى لهم المثل . . وهم يمشون خلفى . . ويقلدونى . . إن كل جارة من جاراتى تتمنى أن يكون لها مكتب مثل مكتبى وعمل ناجح وزوج تطلقه وتعيش حرة مثلى . ولكنها تقول كلاماً آخر حينما تسألها . . لسانها يقطر كذبا وحسداً . . أتريدنى أن أحسب حساباً لمثل هذه المرأة .. إنى أعيش حياة واحدة .. فكيف أتنازل عنها لامرأة ثرثارة كذابة . ولماذا .. لمجرد أن ترضى عنى .. وماذا . . يساوى هذا الرضى الكاذب .

وقاطعتها فجأة لأقول فى نبرات جادة .

— قولى لى . . لماذا حدث الطلاق بينك وبين زوجك . .

وشعرت أنها تضايقت . . ولكنها أجابت فى برود :

— لأنه رجل مغفل . . مثل كل الرجال المغفلين . . يريدنى أن أكون جارية يملكها لا زوجة يشاركها حياته . . يريد أن يجرى ويلهو على كيفه ثم يعود إلى البيت ليجدنى راكعة عند قدميه . . أقول له ياحبيبى . . يامعبودى . . وكأنى أرض وقف مكتوبة باسمه . . يتركها خرابة مائة سنة ثم يعود فيجدها مازالت خرابة . .

وقلت لها بهدوء :

— هل كنت زوجة مخلصة ؟

فأجابت وهى تضحك ضحكة مقتضبة :

— إن الاخلاص تعقل لا داعى له . . إنه أحياناً يلائم المرضى والمقعدين..وأصحاب الأعمال الذين لا يجدون وقتاً ليعيشوا ويستمتعوا . .

ثم انتفضت فجأة لتقول بغيظ :

— ولماذا تطالبون المرأة وحدها بأن تكون مخلصة ؟ . . لماذا لا تطالبون الرجل بالإخلاص . . لماذا تغتفرون له عندما يخطىء ولا تغتفرون للمرأة ؟

— لأن المرأة تحمل ثمرة خطأها . . لأن خيانة المرأة معناها طفل غريب فى العائلة . .

— وخيانة الرجل معناها أيضاً طفل غريب فى عائلة أخرى . .

— عائلة أخرى بعيدة عنا . .

— ياسلام . . ألا تحس بأنك تستحق الشنق وأنت تقول هذا الكلام الفارغ ؟

وعادت إلى الضحك وأردفت فى دلع :

— وإذا كانت الأطفال هى كل المشكلة . . فيمكن أن نلجأ إلى موانع الحمل .

— هذا هو الانحلال بعينه . . تصورى زوجة تحمل فى حقيبة يدها موانع الحمل كما تحمل أصابع الروج وزجاجات البارفان . . هل يمكن لمثل هذه الزوجة أن تهتم بعمل أو بيت . .

— ولماذا لا تقولون هذا الكلام لأنفسكم يا رجال . . ألا تحملون أمثال هــــذه الاشياء فى جيوبكم أحيانا . . ألا تحمل أنت الآن فى جيبك أحد هذه الـ . .

دعنى أفتشك . .

وهجمت علىّ فجأة لتفتشنى . . وألجمتنى المفاجأة . . فتركتها تعبث فى

جيوبى وتخرج المناديل . . والمحفظة . . وتفتشنى جيباً جيباً بدقة . . .

وأخيراً سمعتها تقول فى رقة ولطف :

ـ يالك من طفل وديع صغير . . إنك لا تحمل سوى قطعة شكولاتة . . يالك من ملاك . .

وداعبت خدى بأصبعها . . واحمر خداى من الخجل والإحراج وشعرت بالغيظ لأنها تعاملنى هكذا كأنى طفل . . وقلت بجفاف :

ـ لا تظنى أنى ملاك إلى هذه الدرجة . . إنى فى الحقيقة شيطان على طريقتى أحياناً . .

ونظرت إلىّ بخبث :

ـ أحقا . . أنا لا أصدق . . إن الشياطين لا يقولون عن أنفسهم شياطين . .

وأردفت فى دلع :

ـ وما دمت تأكل البونبون والشكولاتة ياشيطانى . . فماذا تشرب هل تشرب تليو . .

ومالت على الجرس خلفها لتدقه .

ـ سوف أطلب لك تليو . .

واشتد غيظى من سخريتها . . ولاحظت هى أنى مغتاظ . . فسكتت وقالت برقة :

ـ هل آلمتك .. لماذا يؤلمكم يارجال أن نقول عنكم أنكم قطط صغيرة وديعة ويسركم أن نقول عنكم أنكم وحوش . . أنتم أغبياء . . أنا فى الحقيقة لا أحب إلا القطط الصغيرة الوديعة . .

ــ هذا شذوذ جنسى . .

وضحكت ضحكة خليعة . .

ــ ليكن شذوذاً . . ماذا يهمنى . . إنى إمرأة نباتية معدتى رقيقة . . لا أحب لحم الحيوانات . وإنما أحب الخضروات الناعمة الغضة مثلك .

فقلت بغضب :

ــ أنا لست ناعماً ولا رقيقاً . .

ــ حسنا أنت خشن غليظ . . أيرضيك هـذا . . أرجوك لاتحاول أن تكون حيواناً . . إن زوجى كان حيواناً . . كان طويلا وعريضاً . . وغليظاً كالثور . . وكان يخور وهو يتكلم . . وكان يهز الأرض وهـو يمشى . . ومع هذا لم أكن أحتمله . . كنت أشمئز منه . . إنى لا أطيق هـذا الصنف من الرجال الذى يختال بعضلاته وشعر صدره . . إنه يقززنى . . إنى أحلم برجل من نوع آخر رجل رقيق المشاعر ساهم النظرات مثلك . . أرجوك لا تحاول أن تلبس أمامى فروة الأسد . . إنك تفقد كل سحرك . وتصبح شيئاً مضحكا .

والحقيقة أنها أغاظتنى لدرجة أنى بدأت أضحك بعصبية . ثم بدأت هى الأخرى تضحك . . وأخذنا نضحك نحن الإثنان فى مرح . .

وماذا يهم إن كنت أسداً . . أو قطة . . مادمت . .

وتلاقت أيدينا على المكتب ونحن نضحك وتماسكت أصابعنا بعصبية . . وتشبث كل منا بالآخر . كأنه غريق يمسك بطوق نجاة .

وخفتت ضحكاتنا شيئاً فشيئاً . . ولكن أيادينا ظلت متماسكة . . ونظر كل منا للآخر نظرة مليئة بالود .

— ٣ —

كانت الساعة تدق الثانية بعد منتصف الليل .. وأنا سهران .. أنظر بعينين مفتوحتين إلى النافذة التى تشبه برواز أسود حول سماء مرقشه بالنجوم ..

وكان الهواء راكداً لزجاً .. والجو حار .. وقد تخففت من ثيابى حتى أصبحت ألبس جلبابا رقيقا على اللحم .. ومع هذا لم أكن أشعر برغبة فى النوم ..

ودق التليفون إلى جوارى وسمعت صوت فاطمة تقول فى إعياء ونبرات ممطوطة :

— آلو .. أنت .. ماذا تفعل ؟

— لا شىء .. صاحية إلى الآن ..؟ .. ما الذى يبقيك حتى هذه الساعة ؟

ـــ متعبة . . مريضة . . جسمي كله مهدود . إنى أحادثك من فراشي وبطني تؤلمنى آلاما حادة . وقـــد خرج الطبيب منذ لحظة بعد أن أعطانى حقنة . .

ـــ سلامتك . .

ـــ حلمى . . أنا خائفة . .

ـــ خائفة . . من ماذا . .

ـــ أخشى أن أموت هكذا وحدي أو أنام فلا أصحو من نومى أبداً .

ـــ ما هذا التخريف . .

ـــ البيت حولى يشبه مقبرة فى هذه الساعة من الليل .

ـــ أليس معك أحد فى البيت .

ـــ معى الطاهية العجوز وقد سافرت البلد .

ـــ آمنت الآن بأنك لا تستطيعين أن تملأى بيتاً وحدك حتى ولو كانت معك شهادة حقوق . .

ـــ أنت مجرم . أهذا وقت الشماتة . . أى بطنى . . إن النوبة ستعاودنى . . إنى خائفة . . أرجوك :

ـــ ألم تستريحى على الحقنة :

ـــ بطنى .. بطنى ..

ـــ سوف أحضر حالا . .

ولبست ثيابى بسرعة بسرعة وهرولت خارجاً .

وفى الطريق كان قلبى يدق بعنف فى ضلوعى . وكنت أسأل نفسى

ما معنى كل هذا . . هل أحب فاطمة . . هل أحبها حقا . . وهل هذا هو الحب الذى يقولون عنه . .

لا أنكر إنى أشعر بسعادة فى الجلوس إلى جوارها . . وأنتظر مواعيدها بلهفة . . وأرتب فى ذهنى كلاما كثيراً لأقوله ثم أنساه . . وأشعر بخدر فى جسمى وأنا ألمس يديها . . وأصحو على شوق . . وأنام على شوق . . وأعيش بانتظار شىء ما كل يوم . .

إن العقل يتعب . ما فائدة التفكير فى كل هذا . .

وكنت أدخن آخر سيجارة فى العلبة . وأقنع نفسى بأنه لا داعى للتفكير فى شىء وأدق الجرس .

وفتح لى تمورجى . .

ودخلت فوجدت الطبيب إلى جوارها . . يحقنها بحقنة ثانية .

ورفعت إلىّ وجهها وبرقت عيناها . . وكان الطبيب يؤكد لها أنه لم يجد شيئاً فى الفحص . . وأن المغص سببه إحتقان بسيط فى المبيض . . وهى مسألة غير مهمة بالمرة . ويمكن أن تنشأ من البرد أو من الإفراط فى الشراب . . وكانت رائحة الشراب تفوح منها فعلا .

وخرج الطبيب وبقيت إلى جانبها . . وكان وجهها سعيداً . . وكانت أساريرها مسترخية فى راحة . . وقد زال الألم تماماً وحلت محله شقاوة تبدو فى عينيها . . وركنى فمها . . وهما يرتعشان فى خبث . .

وأمسكت بيدى .

— يدك دافئة أدفأ من يدى . . هذا يدل على أن قلبك بارد .



ـــ ويدل أيضاً على أن عقلك فاضى .

ـــ سوف أقطع لسانك الطويل هذا . . سوف أقصه بهذا المقص يا طفلى الصغير .

وغمزت لى بعينيها . .

ـــ أما زالت تحمل شيكولاتة وبنبون فى جيبك . . أين كنت تتشيطن اليوم . .

ـــ لا شيء يؤدبك غير المرض . لقد كنت نائمة منذ دقائق ساكنة ومذعورة مثل الفأر . . ما كان يجب على الطبيب أن يعطيك هذا الحقنة

ـــ اسكت أنها حقنة لذيذة جدا . . لقد قال الطبيب إنها هى الحقنة التى يأخذها المساطيل . . وأنا الآن مسطولة . : ومبسوطة . . والدنيا أمامى مثل حضن كبير حلو . .

ـــ إنها ليست الدنيا التى تزغلل عينيك . . إنها الرجل الذى يقف بجوارك .

ـــ ها . . ها . . ها . . انت مغرور . . أنا لا أحب الرجال .

ـــ ماذا تحبين إذن . .

ـــ أحب البنبون والشيكولاته . . ها . . ها . .

ـــ إذا كانت حقنة مخدر واحدة تجعلك تتكلمين هكذا . . فإنك سوف تصبحين مدمنة خطرة .

ـــ أنا مدمنة خطرة لكل شيء . أنا مدمنة لحظات سعيدة . . مدمنة

دنيا . اسمع . . أن الدنيا مثل الأفيون تماماً . . طعامها يصيب الجسد بالخدر والهمود . . وروائحها العطرة تدوخ . . وشمسها تسطل . . ونسيمها يدغدغ الخدود . . وعنبها يسكر . . وخمرها يسكر . . وكل شيء فيها يسكر . . الدنيا مخدرات .

— أنت أخطر ما فيها من مخدرات .

— اسمع . . إنى أحياناً أكون نشوانة لدرجة أننى أشتهى أن أجرى عريانة فى الشارع . . لا . . لست عريانة تماماً . . وإنما بالمايوه . . وأتمرغ على الحشيش . . كنت أقول هذا لزوجى . . وكان زوجى يقول عنى امرأة سافلة . . ويعطينى محاضرة فى الأخلاق والآداب العامة . . أنتم يارجال مغفلون كلكم مغفلون . . كل شيء عندكم عيب وحرام ويخل بالعرض والشرف .. الحياة كلها فى نظركم شرف رجل .. أية جريمة عندكم تغتفر .. إلا أن يتلوث عرض أحدكم وتشتهى أخته عين أو تلمسها يد . . عمركم يضيع فى هذه الخرافة . . مغفلون .. أنتم تضعوننا فى أضرحة وتعبدوننا وتتبركون بنا .. ونحن بشر مثلكم تماماً .. نتحرق على لمسة ونظرة وقبلة .. ونكلفكم ملايين الجنيهات سنوياً ثمن روج وبودرة ومانيكير ونحول الشوارع إلى معارض إغراء تحت سمعكم وبصركم .. وأنتم تتأججون بالغيرة لأنكم حتى لاتفهموننا .. إننا ليس لدينا فكرة إطلاقاً عن حكاية العرض المقدس هذه . . ولانفكر إطلاقاً فى أن نحمى شفاهنا من القبلات ونحمى أجسادنا من

من النظرات . . نحن نفعل هذا لنضحك عليكم . . ثم نعيش حياتنا الخاصة من ورائكم كما نحب ونشتهي . . يادلاديل . . يابلهاء .

ــ أنت أسفل امرأة عرفتها . . ولولا أنك تقولين هذا الكلام وأنت سكرانة ومسطولة لضربتك . .

ــ يا طفلي الصغير . . إني لم أكن في وعي أبداً . . كما أنا الآن . .

ــ أنت تخرفين . . ولو كنت زوجتي لشنقتك .

ــ لو كنت زوجتك . . لما علمت شيئاً عني . . لأنك أبله . . ولأنفقت عمرك في عبادتي . . وإغلاق النوافذ والأبواب حتى لا تطولني الشمس ولضيعت حياتك وعقلك في الغيرة . . على مدامتك المحصنة . . فاطمة ونطقت الكلمات الأخيرة في خلاعة وتبذل . . فقلت لها في غيظ . .

ــ أنت أحط زوجة في الدنيا . . هل هذا هو التقدم المنشود الذي حلمنا به في المرأة المتعلمة .

ــ لابد أن نفعل شيئاً لتفيقوا . إن الحياة أوسع وأجمل من هذه النظرة التناسلية التي تعيشون فيها ، والنظافة التي تحلمون بها . وأنتم أقذر خنازير .

واستبد بي الغيظ في تلك اللحظة ونسيت أنها مريضة وأخذت أهزها بعنف .

ــ أنت الخنزيرة .. أنت أكبر خنزيرة .

وأفلتت مني وأطلقت ضحكة هستيرية مجلجلة . وكان واضحاً إنها سعيدة جداً بهياجي وغضبي . ولكني أمسكت نفسي وعدت إلى هدوئي .

— أنتم أطفال . أتؤلمكم الحقائق إلى هذا الحد . لا فائدة من إصلاحكم . . حسناً يا شيطاني الصغير . لا تغضب . . نحن نساء طاهرات محصنات عفيفـــات لا نرغب ولا نشتهي ولا نعجب ولا نحب ولا نحس . نحن لفافة عرض موضوعة فى صرة . نحن شرفكم المصون .

وضحكت فجأة فى خلاعة وقالت بصوت مخدر .

— نحن شرفكم .. ها .. ها ..أليس هذا مضحكا . . حرصكم على أن نكون نحن شرفكم . . إن شرفكم أعمالكم يامغفلون . وليس نساؤكم أليس عجباً أنكم لا تريدون أن تقبلوا هذه الحقيقة البسيطة . . آه لقد تعبت . . تعبت . رأسى بدأت تثقل . . حلمى . . إن دماغي ثقلت جداً . . لا تتركنى إنى أخاف أن أنام فلا أصحو . . آه الغرفة تدور . . ضع يدك على رأسى أليست دافئة . .

وأخذت يدى ووضعتها على جبينها . . وتراخت أجفانها وبعد دقائق كانت تروح فى النوم . . وأنا إلى جوارها . . وصدرها يعلو ويهبط . وأنفاسها تخرج معطرة دافئة .

وكانت يدها ما زالت تتشبث بيدى .. وكانت تتقاذفنى إحساسات كثيرة متضاربة . . ولكن منظرها وهى تنام فى وداعة وقلة حيلة سلبنى ثورتى وغضبي .. فأخذت أنظر إليها فى حيرة وعجب . . أين ذهب البركان الذى كان منذ لحظات يقذف بالحمم . . أين نامت النار التى كانت تتأجج

فى هذا الصدر ..

وكانت تمسك بيدى فى لطف ورقة .. وأحسست بالحنان رغماً عنى . ونزلت بيدى على خدها وعنقها ولمست صدرها ثم سحبت يدى بسرعة وتمشت فى بدنى قشعريرة .

وتذكرت ليلة دخلتى بزوجتى .. وكيف كنت أحاول أن أحل عقدة لسانى وعقدة غرائزى بأن أشرب الويسكى . . وتذكرت الآن . . وأنا أحاول أن ألجم غريزتى . .

كانت هـذه هى الشهوات الحقيقية . . أحسها لأول مرة . . كاملة . . عارمة . .

ولا أدرى كم من الساعات ظللت أصارع نفسى وأنا جالس فى الكرسى أدخن .

ولكنى أفقت من هذا الصراع على صوتها فى الفجر يهمس إلى جوارى وعينها وهما تبحثان عنى .. وذراعيها وهما تضمانى وتجذبانى إلى جوارها فى ضعف .

وسمعتها تهمس وهى تحتضنى :

— إنك رجل غريب . . إن جسمك بارد مثل الضفدعة .

وجذبتني من عنقى . . فى دلع . . وغمرتنى بالقبلات .

* * *

كل ما أذكره وأنا عائد إلى بيتى هى كلماتها الأخيرة وهى تودعنى قائلة : « أنت خنزير قذر .. وستقول لزوجتك ذلك . أم أنك ستكذب » .

ومنظر وجهها وهى تقبلنى فى مزيج غريب من السخرية والحب هامسة .

ــ أما زال فى نيتك أن تشنق زوجتك إذا ضبطتها فى أحضان رجل آخر ... أم أنك فقدت الشجاعة . . وفقدت الشرف أيضاً .

ولا أعرف بالضبط ماذا فقدت فى ذلك اليوم . . ولكنى تغيرت كثيراً .. ولعلى فقدت خوفى .

ولعل شيئاً ما قد تغير فى شكلى ومنظرى أيضاً . . لأن زوجتى قد لاحظت ذلك وقالت فى قلق:

ــ مالك . . شكلك متغير .

ــ لا شىء .

ــ تعبان ؟ ؟

ــ أبداً .

ــ الأستاذ عزيز سأل عليك ثلاث مرات بالتليفون . . .

وأمسكت بالتليفون وضربت النمرة .. ورد الأستاذ عزيز فى شوق .

ــ أهلا يا أخى . . إنت فين . . أنا أبحث عنك من الصبح .

ــ كنت فى مشوار . . .

ــ طيب تعالى . . اخطف رجلك وتعالى .

ولم افكر فى سؤاله عن سبب هذه الدعوة المفاجئة .. ورحبت بهذه الفرصة التى تبعدنى عن بيتى قليلا ..

وخرجت لتوى . . لأدق الباب على جارنا عزيز . . وفتح لى عزيز بنفسه . . وقادنى من يدى إلى غرفة داخلية وعرفت من الوهلة الأولى لماذا

كان عزيز يبخث عن طول النهار . كانت برتيتة قمار حامية تدور رحاها في الغرفة . .

وقدمني عزيز إلى ثلاثة لا أعرفهم . . الأستاذ فلان . . فلان . فلان والفلان الوحيد الذي أحفظ صورته الآن هو اللاعب الذي كان يجلس في مواجهتي وهو رجل نحيل ممصوص له شارب كث يغطي فمه . .

وجلست ألعب وأكسب . . وأقرقر في سعادة كالقطة التي أكلت جيداً ووجدت مكاناً ليناً دافئاً تتمدد عليه ولم أكن أفكر في شيء . . ولم أكن أرى شيئاً سوى الورق في يدي . . وأبو شنب الجالس أمامي كالصنم . . يسبح في موجة من الدخان .

وسمعت صوت البيانو آتيا من الغرفة البعيدة . كانت نانى تعزف . نفس المقطوعة التي عزفتها يوم عيد ميلاد إيني . .

وكانت الأنغام تأتي إلى أذني رقيقة حزينة . .

أين سمعت هذه الأنغام ؟ . .

آه . تذكرت الآن انها مقطوعة . . الطائر السجين . . لفرناندو . .

وكانت الانغام حزينة جدا . . متعالية مترفعة . كأنها بكاء إله في سجنه .

وقطع عزيز الصمت قائلا :

ـــ أتعرفون لماذا نحب القمار ؟

وقلت في هدوء وأنا ألعب :

ـــ لا أعرف . ولا أريد أن أعرف .

وقال أبو شنب :

ـــ إن ألذ أوقاتي هي التي ألعب فيها القمار .. إني أنسى كل شيء .. زوجتي .. وأولادي .. وبيتي .. وعملي .. وأمسي ويومي وغدي أليس هذا هو أجمل شيء في الدنيا .

ـــ نعم .. ولكنك تدفع دمك ثمن هذا النسيان ..

ـــ إني أنسى حتى هذا أيضاً .

وفي الحقيقة لم أكن أعلم لماذا أحب القمار .. ولكني كنت أحس أن كل لحظة أثناء اللعب تبدو لحظة مهمة جدا بالنسبة لي .. وهذا في نظري سبب كاف لأحب أي شيء ..

وضايقني أن أفكر هكذا .. وفقدت شهيتي للعب .. فأهديت الجنيهات العشرة التي كسبتها لعزيز .. وجلست وحدي بعيدا .. اتفرج عليه وهو يخسرها ثم يكسبها .. ثم يخسرها من جديد .. ثم يكسبها .. ثم يخسرها .. ثم يكسبها . ثم يخسرها .. ثم يكسبها .

وكان قد بدأ يصبح عصبياً .. وأصبح يريد أن يتخلص منها فيخسرها إلى الأبد .. أو يلقي بها من النافذة .

واستبدت بي رغبة في الضحك . فضحكت بصوت عال . والتفتت إلى أربعة وجوه في وقت واحد .. في دهشة .

ولم أكن أعرف أن منظر القمار من بعيد يبدو مضحكا إلى هذا الحد . ولكنه في الحقيقة كان يبدو لي في تلك اللحظة مضحكا جداً .

وأشد ما كان يضحكني هو منظرهم . وسحنتهم المقلوبة .. وأعصابهم المشدودة .

– ماذا يريدون بالضبط ؟ ! .

وماذا أريد أنا أيضاً ؟ ! .

وعاد الطائر السجين يغرد . . بأنغامه الحزينة .

وانقبض قلبي بشدة كأن يداً من حديد قد أمسكت به واعتصرته . حتى كادت روحي تخرج مني .

وأحسست فى تلك اللحظة أنى فى حاجة إلى صاحبتى لأكلمها . وأبكى على صدرها كالطفل . . وأقبلها . . وأحتضنها . . وأفقد وعيي بين ذارعيها . .

واستأذنت من الجماعة لأنصرف . . ونظر إلىّ عزيز نظرته إلى رجل غريب الأطوار . . وقلت له مازحاً .

– إن جنيهاتى العشرة . جنيهات منحوسة . . إنك لن تستطيع أن تكسبها . . ولن تستطيع أن تخسرها . . ولن تستطيع أن تنفقها . . إنها كاللعنة الفرعونية لا حل لها . .

وخرجت . .

وصافحت أنفى نسمات الصيف العليلة فآثرت أن أمشى وتركت عربتى فى الجاراج . . وسرت أستاف الهواء فى خياشيمى . . وأهز يدى جانبى . . وأنظر إلى الناس . . وكل واحد فيهم يسير ملفوفاً فى مشاكله كأنه دنيا صغيرة : . لا يفيق منها . إلا لحظات . يتلفت حوله ها هو واحد يعرفه . . وأهلا وسهلا . كنت فين . مضى وقت طويل لم نرك . لابد أن تزورنا يا أخى . . ثم يعود فيغطس فى دنياه ويغلق بابه .

قمرته . ويبحر إلى الأعماق البعيدة فى نفسه .

ويبحر . . يبحر إلى أين !!؟

وتشوقت إلى شاطىء . .

إلى حبيبتى .

كنت فى حاجة إلى لحظة راحة . . لحظة سكون . . لحظة عدم تفكير فى أى شىء . .

ويبدو أنى مشيت كثيراً . لأنى بدأت أحس بألم فى عضلات ساقى فاتجهت إلى بيت فاطمة .

وكان أول شىء فعلته حينما وصلت أنى رفعت السماعة وطلبت زوجتى وقلت لها إنى سأتغيب لمدة ثلاثة أيام فى سفر إلى البلدة لأعمال ضرورية

وكانت فاطمة واقفة إلى جوارى تضحك بصوت خافت وحينما وضعت السماعة قالت فى سخرية .

— لقد أصبحت خنزيراً عريقاً فى الخنزيرية . . إنك تكذب دون أن يطرف لك رمش . . هذه قدرة غير عادية .

وكانت واقفة بقميص النوم . . أمام المرآة . . وكانت تبدو كحيوانة . . حيوانة لم تهذب فيها الثقافة شيئاً . وإنما أطالت أظافرها وشحذت غرائزها . . وأعطتها القوة . . والجرأة . . والوقاحة . . وتركت المرآة لتقبلنى فى فمى . .

وقلت أذكرها :

— ماذا ستفعلين فى قضية الوقف ؟

فأجابت ضاحكة :

— إن الوقف هو أنت وقد حللنا الوقف . . لم تعد خرابة موقوفة

على زوجتك كما كنت زمان . . وإنما أصبحت ملعب كرة . . أليس هذا انتصاراً رائعاً . . هل رأيت دفاعاً يفوز بالحكم بهذه السرعة ؟ .

ـــ لا أظن أن الأمر قد تغير كثيراً . . فقد تحولت من خرابة موقوفة على زوجتى إلى خرابة موقوفة عليك . . ومعنى هذا أننا سوف نحتاج إلى محامية أخرى لتحل الوقف من جديد . . إن المشكلة ما زالت باقية . .

ـــ آه . . ماذا تقول . . إنى أذبحك . . وأتغذى على لحمك إذا حدث هذا . . إن القضايا عندى تخرج من يدى إلى القبر قبل أن تخرج إلى يد أخرى . . إن المرأة التى تنافسنى لم تخلق بعد . . هل تسمع .

ـــ هل أفهم من ذلك أنك تطالبيننى بأن أكون مخلصاً ؟ .

ـــ إنى أفهم شيئاً واحداً هو إنى أحبك .

ـــ وهل يعنى هذا أنك تكونين مخلصة لى ؟

ـــ أوه . . هذه مسألة أخرى .

وجذبتها من شعرها فى غيظ . .

ـــ تعالى . . هنا . .

ونظرت إلىّ ثم ضحكت . .

ـــ ياصغـــيرى . . إنك تصبح رائعاً حينما تغضب . . إنى أموت فى غضبك . .

وراحت تقبلنى وهى تهمس :

ـــ إنى أغيظك . . أثيرك فقط . . أنت تعلم كم أحبك . .

وقبلتها فى شفتيها وأنا أقول .

ــ أنت إمرأة مجنونة تماماً . . وأنا أحبك لأنك مجنونة . .

ــ ياشيطانى . . يا طفلى الصغير الجميل . . ياحبيبى . . ياجنونى .

ــ أحبك . أحبك . يا أحط امرأة فى الدنياء

ــ وأنا أعبدك . يا أحط رجل فى التاريخ .

ــ ياحيوانة .

ــ يا مسكين . لماذا تبــدو دائماً مسكيناً حتى وأنت تقسو وتشتم . لماذا تبدو عيناك مسكينتين وأنت تكذب وتخطىء وتأثم . . لماذا تبدو بريئاً تعساً دائماً ... لماذا لا يفارق الأسى والحزن عينيك . . لماذا تبدو طفلا شقياً يتيما . إن ضعفك يفقدنى صوابى . كم أتمنى أن أفهمك . كم أتمنى أن أسعدك . لماذا تبدو قلقا مشتتاًهكذا . ماذا تريد . . ها أنا ذا بين يديك . أقتلنى ولكن لا تنظر إلىّ هكذا . إنك تنظر إلىّ كأنك لاتعرفنى . تنظر إلىّ بلا عقل . بلا أمل . ما الذى يعتصر قلبك ما الذى يوزع خواطرك هكذا : ماالذى يبلبل تفكيرك ؟

وأخذت تهزنى بشدة :

ــ أنظر إلىّ . . إلى أنا . . لا تنظر هكذا كأنك تحملق فى الهواء . . حلمى . . حلمى . .

ــ ماذ أفعل وهذه هى حقيقتى . . ماذا أفعل . . أنا مسكين فعلا مسكين جداً . . جداً . .

وبكيت . .

بكيت بحرقة على صدرها . .

— ٤ —

كانت فاطمة تجلس وسط الغرفة ملفوفة بفوطة وقد خرجت لتوها من الحمام .. وشعرها كله مبتل ومرجل ومعقوص إلى فوق . . وهى تفكه وتسرحه وتضع فيه البنسات . . وظهرها إلى ناحيتى . . وأنا فى الفراش يجثم على أنفاسى الملل . . وأتمنى من أعماق أن تتركنى وحدى وتذهب إلى أى غرفة أخرى . .

وسمعتها تدندن بفمها . . ثم تقوم وتذهب إلى المطبخ . وتنفست الصعداء . . ونسيتها تماماً . . ونمت . . لم أتذكر أنها معى إلا حينما أيقظتنى وفى يدها كوب من عصير البرتقال . .

وكانت عيناها طيبتين وديعتين . . وقـــد انطفأت منهما الشراسة القديمة . . وحل محلها خضوع أليف . . وناولتنى الكوب . . وقبلتنى

فى خدى وقالت فى رقة :
— أتحبنى ياحلمى . .
فقلت وأنا أغتصب الكلمات اغتصاباً :
— نعم .
وشربت الكوب فى جرعة واحدة . .
ونظرت إلىّ فى عينى . . ولكنى أبعدت عينى عنها . .
وقالت فى نبرة حزينة :
— أنت لا تحبنى . .
فقلت فى هدوء وقد أحسست أنه لا فائدة من المضى فى الكذب :
— نعم . .
— إذن لماذا فعلت كل هذا . .
— لا أدرى .
وسكتت لفترة طويلة ثم قالت فى ألم :
— ألن نلتقى بعد الآن . .
ولم أعرف بماذا أجاوب . .
ولأول مرة منذ عرفتها رأيت وجهها المتكبر يتضعضع أمامى ثم يتهاوى فى بكاء مر . .
وغمغمت من خلال دموعها .
— ألم تشعر معى بلذة .
فقلت فى صدق . .

— شعرت باللذة التي لم أشعر بها أبداً في حياتي ..

— إذن لماذا تتركني هكذا . . وماذا كنت تريد لتحبني

وتضعضعت الكلمات في فمها من جديد . .

ولم اعرف بماذا أجاوب . . ولا ماذا كنت أريد منها .. ولا ماذا أريد من نفسي . .

— هل أنا قبيحة . .

وأزاحت الفوطة المبتلة لتكشف عن جسمها الجميل المندى بالماء .. وبحثت بعيني في جسمها . . ذلك الجسم الذي كان يفتنني ويصيبني بالدوار كلما لمسته . . وأحطتها بذراعي . . ولكني لم أحس بشيء إطلاقا . . وبحثت في عينيها عن المرأة الجريئة المستهترة الوقحة التي كانت تنتفض بالتحدي ولكني لم أجد غير امرأة منكسرة .

وخيل إليّ من نظرتها أن عمرها قد زاد عشر سنوات . .

ولم أعرف ماذا أحببته فيها ذات يوم . . ولا ماذا أكرهه فيها الآن . كل ما أعرفه أني كنت أشعر بالملل . . وبحاجة شديدة إلى أن أصبح وحدي . .

أما هي فكانت تنظر إليّ في أمومة وحنان وتربت على كتفي قائلة :

— أنت مسكين . .

وتبكي وتمسح دموعها .. وتغمغم ..

— ولكني أحبك . . ولا أقوى على فراقك أبداً . . أبداً . . ولم يحدث أن أحببت رجلا كما أحببتك . . ولا أعرف ماذا أفعل لتحبني . .

ماذا أفعل . .

وكفكفت دموعها وهمست فى حيرة :

ـــ أريد أن أعرف ماهو الحب .. منذ أيام كنت ألهو معك كما ألهو مع أى رجل . . كنت فى نزوة شقاوة . . وكنت أتسلى . . وأقضى وقت . . كعادتى . . دائماً . . وما أكثر الأوقات التى قضيتها كامرأة مطلقة فاضية ليس وراءها مسئوليات ولا مشاغل . . وكانت أوقاتى تنتهى . . وتنتهى معها نزواتها . . ولكن ها أنذا الآن أمام إحساس آخر تماماً . . وقت لا يريد أن ينتهى . . ونزوة لا تريد أن تشبع . . ماذا حدث لأحبك . . وما هو سر هذا التعلق الذى يعذبنى . . وهذا أنت جالس أمامى . . ضجر ملول . . تتأفف . . وتكاد ترفضنى

ـــ ولهذا تحبينى .. إنه ليس حبا .. ولكنه كرامة مجروحة . . وأنوثة مهينة . . أنت تريدين أن تمدى فى هذا الوقت على أمل أن تنتهى إلى نهاية تنصفك . . إنه ليس حبا لى . . ولكنه حب لنفسك . .

ـــ أنت مسكين .. أنت لا تصدق حتى هذه الحقيقة البسيطة .. إنى أحبك .. ماذا أفعل لتصدقنى .

ـــ أنت مدمنة لحظات سعيدة ليس إلا .. أنت مدمنة دنيا .. مدمنة مخدرات إسمها الرجال .. أليست هذه هى فلسفتك وكلماتك بالحرف .. وها أنت تقولين الآن انك تحبينى وتذوبين حبا ..

ـــ إنى أحس بإحساس جديد .. لم أعرفه أبدا ..

ـــ أليس من الطبيعى أن نشك دائماً فى الأشياء الجديدة . . وخصوصاً

حينما تكون غير طبيعية وغير متمشية مع شخصياتنا ..

والحق إنى كنت أشعر بشيء ما فى شخصيتها لا أرتاح إليه .. شيء غير طبيعى ..

لم تقوى اللذة الجسدية التى جمعتنا ثلاثة أيام متوالية على أن تتغلب على هذا الشعور .. وظلت علاقتى معها بالجسد وحده .. بينما روحى تهوم بعيدة نافرة ..

وكانت لذاتى يعقبها الضيق والندم والهوان .. لأنى تركت جسدى يسوقنى ويجرنى كالدابة ..

وكنت أفيق أحياناً .. فأتمنى أن أخرج .. أهرب ولو من النافذة .

وحينما ضعفت فى لحظة .. وبكيت كالطفل .. وكشفت لها عن عذابى .. خجلت ..

خجلت جداً كأنى تعريت أمام إنسان غريب لا أعرفه ..

واحسست بما هو أكثر من الخجل .. بالكراهية .. وبالنفور منها لأنها رأت ضعفى هكذا خلسة .. وساورتنى الرغبة فى الفرار ..

ولم يعد وجودها حولى يسعدنى .. وإنما اصبح يفضى بى إلى توتر مبهم لا أدرى سببه .

أنا مسكين .. نعم مسكين .. مسكين ..

ولكنها إنسانة غريبة لا أعرفها .. فلماذا تدخل غرفتى الخاصة .. وتتكش فى أدراجى .. وتعبث فى نفسى .

أنا لا أريد عطفها .

وكانت تبكى فى هذه اللحظة .. ولكنى لم أكن أسمعها جيداً .. كنت

أسمعها بأذني فقط . .

ولكنها لم تفقد الأمل . . وسمعتها تقول فى مرارة . .

ــ هذه أول مرة فى حياتى . . يفعل بى رجل مافعلت . .

وضايقتنى هـــذه الملاحظة . . هل تريد أن تفهمنى أنها كانت مناورة منى . .

وعادت تقول فى مرارة :

ــ كنت أنا التى ألهو بالرجال . . كنت أنا التى أرفضهم . . وأكسر قلوبهم . . ماذا حدث لى . .

وأخذتها الكبرياء فجأة فهبت واقفة ثم تركت الغرفة . . وغابت فترة طويلة عادت بعدها بكامل لبسها ووقفت تضع الروج أمام المرآة . . وهى تقول فى جفاف . .

ــ أنا أكرهك . . ومن أنت حتى أحبك . . أنت رجل مثل أى رجل . . إنى أستطيع أن أعود كل ليلة بحفنة من أمثالك . .

ثم ضحكت ضحكة رنانة وأردفت :

ــ هل صدقت حينما قلت لك أنى أحبك . . إنى أضحك عليك . . وتلك عاداتى دائماً حينما أريد أن ألهو . . فأنتم لا يعجبكم إلا الكذب . . لأنكم أنتم أيضاً كذابون وعواطفكم كاذبة . .

وسكتت فجأة لتقول :

ــ أتظن أن هناك فى الدنيا شيئاً اسمه حب . .

وأجبت فى إخلاص :

ـــ لا أدرى . .

ـــ هناك ليال كتلك التى قضيناها معاً . . يذهب بعدها كل واحد إلى حاله . . ولا يوجد شيء غير هذا . . أما بقية الأشياء التى يرويها الناس فهى أكاذيب . . الوعود أكاذيب . . العواطف أكاذيب . . . الإخلاص كذبة تستعبدوننا بها لنكون لكم طول حياتنا ثم تلعبون أنتم على كيفكم . .

وأحسست أنها عادت فأصبحت فاطمة . . التى عرفتها . .

وأحسست أيضاً . . أنها تكذب . . وأنها أيضاً كانت تكذب . . . وأنها دائماً تكذب . .

وإن هذا الشيء الغير حقيقى فيها هو الذى ينفرنى . .

وأن هذا الشى هو المسافة الشاسعة التى ظلت قائمة بيننا . . والهوة التى لم تستطع لذة الجسد أن تعبرها لتوثق بيننا أواصر الحنان والمودة .

ونظرت إليها . . هذه المرة فى عطف . . فقد كانت هى الأخرى مسكينة . . وكانت تمشط شعرها فى المرآة . . وتمضغ اللادن فى صوت مسموع . . وتطرقع بأسنانها وهى تمضغ . . لتحدث صوتا . .

وكان سكوتنا ثقيلا كريها . . وكان يشوش . . على آذاننا أكثر من الضجة . .

وقمت من الفراش . . وبدأت ارتدى ثيابى . .

وحينما نظرت إلى المرآة . . . لم يعجبنى وجهى . . كان يبدو بليداً وتذكرت اللحظة التى دخلت فيها منذ ثلاث أيام حينما نظرت إليه

وجهى فى نفس المرآة .. وكان يبدو مشحوناً بشىء آخر .. أمل .. أو حلم .. أو نشوة ..

كان أجمل بكثير من الآن .

ونظرت إليها ... كان وجهها هى الأخرى معتماً ...

واتجهنا إلى الباب فى وقت واحد .

كان كلانا يشعر برغبة فى الخلاص .

وعند الباب تصافحنا فى برود .

ثم تبادلنا نظرة طويلة ... هى مزيج مختلط مشوش من كل المسرات والآلام التى أحسسنا بها طيلة هذه الأيام الثلاثة ...

وبقينا لحظة صامتين ...

ثم انصرفت مسرعة ...

وخرجت لأمشى بدون وجهة ... وأنا أشعر فى داخلى بحرية لا نفع لها ...

وتذكرت ميعادى مع الخواجة مترى ... التاجر العجوز فى البورصة ...

ونظرت إلى ساعتى ... كان باقياً على الميعاد نصف ساعة ...

ومشيت فى هدوء فى طريقى إلى البورصة ...

ترى ماذا يريد منى الخواجه مترى ...

وفى البورصة كان مترى واقفاً ينظر فى ساعته بعصبية وينظر إلى الباب ... وحينما رآنى تهلل وجهه وأخذنى تحت إبطه ... وخرجنا

وسألنى عن مشاريعى وعن حال الزراعة والأرض فى الصعيد .. وقلت ..

ــ الأحوال بخير يا خواجه ..

فضحك وهو يحاوبنى ..

ــ إنت دائماً تناديني يا خواجه . الظاهر أنك تعتقد أنى خواجه صحيح ..

ــ إن مظهرك خواجه فعلا ..

واستغرق فى الضحك ثم أردف .

ــ يا حبيبي أنا صعيدى بن صعيدى .. يظهر إنك لم تذهب إلى الصعيد أبداً . انهم هناك يسمون الذى يلبس بدله خواجه . لقد عشت فى الصعيد أربعين سنة .. ولى ذكريات مع والدك حينما كنا نكافح معاً هناك أيام الشباب .

وأخذنى إلى مكتبه .. وأشعل سيجاراً .. وبدأ يتكلم فى نبرة جادة .

ــ لقد استدعيتك لأعرض عليك فكرة مشروع نشترك فيه سوياً أنى أفكر فى افتتاح مكتب للتصدير والاستيراد برأس مال ثلاثين ألف جنيهاً .. ما رأيك ..

ولم أجاوب .. وإنما أخذت أفكر وقال هو ..

ــ طبعاً إنت فرحان بالفدادين التى ورثتها .. وكل همك أن تنام عليها مثل كل الأعيان .. اسمع كلامى ان الأرض لم تعد وسيلة للمكسب إن مكسبها الآن تعبان .. وخصوصاً لمن يؤجرها مثلك .. انى أعرف الصعيد وأحواله . إننا الآن فى سنة ٥١ والأزمة فى قمتها .. الفلاح



يستأجر الأرض الآن ولا يسدد شيئاً من إيجارها لسبب بسيط لأنه مدين بكل شيء .. مدين بسق الأرض لصاحب وابور الماء ومدين بتسميدها لوكيل شركة عبود ومدين بزراعتها لبنك التسليف حتى محصولها باعه سلفاً بالبخس للمرابي على سلفة عشرة جنيهات يعيش بها.. وفى النهاية وبعد كل هذا الكدح يكسح النيل زراعته ويغرقها .. ماذا تستطيع أن تفعل أنت أيها المالك مع مثل هذا الفلاح . . إن كل ما تقدر عليه هو أن ترفع عليه قضية إخلاء . . ثم تأخذ حكماً بالاخلاء . . ثم لا يجد الفلاح حلا سوى أن يطلق عليك الرصاص . أو يستأجر عليك الخط وعواد . . وهذه آخرة الأرض . . ومشاكلها . .

إنك لا تعرف الفلاح فى الصعيد . . إنه ما زال يستشير حمارته كل يوم وهو ذاهب إلى السوق .. ويسألها هل يبيع القمح أم لا يبيعه .. فاذا رفست برجلها . . عاد أدراجه ولم يبع شيئاً . .

وأنت تريد أن تضع رزقك وعمرك وأرضك فى يد هذا الفلاح . . وتنتظر أن تصبح غنياً . . كلام فارغ . . اسألنا نحن . . نحن جربنا من قبلك كل هـــذه الأشياء .. إن سر الغنى فى التجارة . . وليس فى الزراعة.

— وماذا تريدنى أن أفعل . .

— تتخلص من هذه الأرض النحس وتشتغل معنا فى المكتب .

— وإذا لم نجد شيئاً نصدره أو نستورده . . وأنت تعلم ظروف التجارة الخارجية وقيودها . .

فضحك ضحكة صفراء . . وقال .

ـ نبيع أذونات الإستيراد نفسها . . ونتاجر فيها .

فقلت في تردد .

ـ ألا يعتبر هذا عملا غير قانوني ؟

فضحك ضحكة أكثر إصفراراً وأردف . .

ـ وأي شيء حولك قانوني .. إن كل شيء غير قانوني .. إن المال الذي تعيش منه غير قانوني . .

إن المائة فدان التي ورثتها عن المرحوم والدك . . كان شراؤها على يدي . وكانت نقودها من ألاعيب البورصة التي قمنا بها بالإشتراك مع سماسرة فاروق وانتهت بإفلاس أكبر البيوتات التجارية . والحكاية كانت لحاصدي في كل الجرائد . . ولم تكن قانونية بالمرة . . لقد كتبنا عقوداً بأكثر مما نملك من أرصدة قطنية . . وهذا تزييف . . وهكذا ارتفعت الأسعار بالكذب . . وكسبنا ألوف الجنيهات والفدادين .

ويظهر أنه لاحظ الحرج الذي بدا على وجهي فأسرع يقول :

ـ وهذا حال التجارة دائماً . . ليس في التجارة شيء إسمه قانون . . التجاره في حقيقتها هي تنظيم النصب . . والإثراء بعقد الصفقات على الورق فقط بدون شقا . . وبدون عرق .

حينما يكون لك مكتب استيراد وتصدير فإنك سوف تشارك في ربح المصنع وربح الدكان . . دون أن تعمل شيئاً أكثر من أن تجلس على مكتبك وتحرر عقوداً . . أليس هذا أفضل من المناكفة مع الفلاحين المعدمين

فى الصعيد .

إن النصب فى كل مكان حتى فى الزراعة . . وأنت حينما تقاضى فلاحا مدينا لا يملك سوى ذراعيه وتخرجه من أرضك . ألست نصابا ؟ !

إن النصب فى كل مكان . . يظهر إنك جديد على أمور الدنيا .

إن الدنيا ياحبيبي نصب فى نصب .

فكر فى المشروع الذى عرضته عليك . . لقد كنت أحب أباك وأتفاءل بالعمل معه . . وأنا أريد أن أتعاون معك . . سوف أتركك يومين ثم أكلمك مرة أخرى . .

وصافحنى . . وأوصلنى حتى الباب . .

وخرجت . . وكل شيء يدور فى دماغى كالدوامة .

وكان الحديث القصير الذى تبادلته مع الخواجه مترى صدمة لأعصابى .

فقدت الكثير من ثقتى . . وإيمانى . . دفعة واحدة .

وأحسست بالقسوة الشديدة . .

كان كلام الخواجه مترى فيه قسوة . . سودت الدنيا فى وجهى كان فيه اتهام لوالدى . . ولثروتى . . وللنعمة التى أمرح فيها .

لا فائدة . . الدنيا نصب فى نصب . . تماماً كما تقول فاطمة . .

هل صحيح أن الدنيا نصب فى نصب . . ؟

الحق أنى لم أجد حجة أقيمها على كلامه .

أنا نفسى كنت أقوى إثبات لهذا الكلام . . فمنذ ثلاثه أيام وأنا

أخون زوجتي مع إمرأة لا أحبها بدون سبب واضح . .

ومع هذا فقد كنت أشعر أن كلامه كذب . . كذب . . الدنيا ليست شراً كلها . . ولا أنا شرير كلي . .

القلق يهزني في داخلي . . أنا أتعذب . .

كلنا نتعذب . . ونبحث عن حل على قدر فهمنا . .

وذهبت إلى بار ماسبيرو . . وطلبت كوباً من النبيذ . وكانت الوجوه حولى تثبت لى أننا جميعاً مساكين .

كان كل واحد يحملق فى الهواء . . كأنه يطارد ذبابة وهمية .

وجلست أحصى الزجاجات على الأرفف . وأحصى الوقت الذى تستغرقه الزجاجة لتفرغ . . وأحصى فى دماغى عدد الشوارع وعدد البارات . . وعدد سكان القاهرة . . وعدد سكان العالم . . وما يشربه الناس من السم كل ساعة . .

وكانت نتيجة الإحصاء مضحكة . . خمسة ملايين زجاجة ويسكى يشربها سكان العالم كل ساعة . .

ألا يبعث هذا على الإشفاق

وأخرجنى البارمان من تصوراتى .

وهو يملأ كوب النبيذ قائلا .

ـــ أتعرف مم يصنعون هذا النبيذ الفاخر . لقد رأيت العنب بنفسى فى بوردو . كل حبة مضيئة . . كأن الشمس معبأة فى داخلها . .

أنا لم آت هنا لأشرب الشمس . . لقد جئت لكى آخذ ضربة

على رأسي : . إبحث لى عن نبيذ آخر مصنوع من الصرم القديمة :

وضحك البارمان وقرب منى صحناً به جامبون . . وهو يهمس

— وهذا جامبون طعمه كطعم القبلات . .

ووقف ثلاثة من الشحاذين يعزفون البيانولا أمام البار وبدأوا يلعبون . . ويصرخون .. ويضحكون ..ودخل أحدهم يجمع القروش في قبعته وكان وجهه مدهوناً بالسيبداج وعليه لطعتان حمراوان : وكان فمه يضحك . . ولكن عيناه كانتا حزينتين جداً .

وكان طعم الجامبون ألذ من طعم القبلات فى فمى . وكانت الموسيقى سخيفة . ولكنى طلبتها مرتين حتى تصدعت رأسى .. وكان البارمان واقفاً أمامى يلوى شفتيه فى اشمئزاز .

— ما الذى يعجبك فى هذه الدوشة . .

— إن مفعولها أسرع من مفعول نبيذك الفاخر . .

— إنك لن تعرف طعم نبيذى وأنت تشربه هكذا وحدك على أنغام البيانولا.. أنت فى حاجة إلى غادة هيفاء عيونها سود .. تنظر إليك وتنظر إليها.. وإلى شىء هنا فى قلبك يأ كله من الداخل .

— حينما يكون هناك شىء فى قلبى يأ كله .. فإن كل شىء أشربه سوف يتحول إلى نبيذ .. سوف تكون المياه العادية نبيذا .. لن أ كون فى حاجة إلى من يعصر لى عنب بوردو ويجيء لى الشمس فى زجاجات . سوف أ كون أنا الشمس التى تشع فى كل الزجاجات . : احمد ربنا ياخواجة على أن قلبى فارغ . . وإنى آ كل بعضى . فلهذا جئت إليك . . ولهذا يأتيك الزبائن كل يوم : وتجد رزقك ..

— أنت فيلسوف يا أستاذ حلمى .

— أتظن ذلك . .

— وهذا مفعول نبيذى أيضاً فهو يصنع فلسفة فى المخ . . إن كل الفلاسفة متخرجون من عندى . .

وجرعت الكوب دفعة واحدة . . والظاهر انى كنت أريد أن اتخرج بسرعة . . واختفى البارمان . . ونسيت أن أسأله . . أين يذهب المجتهدون فى الشرب . . هل يصبحون أساتذه فى الفلسفة . . أم يصبحون مجانين . .

وكان فى الركن رجل عجوز أمامه زجاجة براندى كاملة . . وكان يتحرك بصعوبة . . ويسعل سعالا جافا . . ويصب فى جوفه الكأس بعد الأخرى . .

وحينما كنت أعود فى المساء إلى بيتى . . ويداى فى جيوبى . . كنت أسأل نفسى . . ما الذى يجعل هذا العجوز يجلس كل يوم ويفرى كبده هكذا . .

وكنت أرى فى الظلام وجهه الترابى المريض . . وأسمع سعاله الجاف وأتذكر كلام الخواجه مترى . . بأن كل الناس وحوش . . يفترسون بعضهم البعض . . ولا أصدقه . . لا أصدقه أبداً . .

إننا نقتل أنفسنا . .

نحن مساكين . .

ودخلت البيت . . وغمرنى الضوء الشديد فى الصالة . . واستقبلتنى زوجتى متهللة . . وسألتنى عن حالة الزراعة فى البلد . .

وتذكرت أنى كذبت عليها لا تغيب هذه الأيام الثلاثة .. وأجبتها وأنا أتجنب النظر فى عينيها ..

ـ كل شىء على ما يرام ..

ـ وماذا فعلت مع علوان ..

ـ ومن هو علوان هذا ..

ـ الرجل الذى أحرق الذرة .. لقد حسبت أنك حضرت الحادثة .. لقد وصل خطاب من البلد وفتحته على أمل أن يكون خطاباً منك ولكنه كان من ناظر العزبة يروى فيه ما حدث من علوان .. وحادث إحراق الذرة ..

فقلت بارتباك :

ـ آه .. هذه الحكاية .. لقد سووها حينما وصلت والحالة الآن هادئة تماما ..

وقالت وهى تضم يديها إلى صدرها ..

ـ الحمد لله .. لقد كنت قلقة عليك ..

ولم يبد عليها أنها تشك فى شىء ..

وكانت غرفة الاستقبال مضاءة وقالت لى أن مدام عزيز عندنا .. وأنها سهرانة عندنا الليلة لأن زوجها مسافر إلى الإسكندرية .. وصاحت نانى .. نانى .. لقد جاء حلمى ..

وخرجت نانى .. وكانت تلبس فستاناً أسود وتضع على كتفيها وشاحاً أحمر وكان الوشاح الأحمر يلمع على جسمها الصغير كأنه فص من العقيق ..

وتصافحنا . . وعادت إلى مقعدها وكان فى يدها بلوفر تشتغل فيه . .
وكانت تنحنى على التريكو وهى تعمل ويتدلى شعرها كالبارفان فيخفى وجهها . .
ومن حين لآخر كانت تمد يدها وتزيح شعرها فتبدو أهدابها الطويلة تختلج فى اضطراب . .

وكنت أحس وأنا أنظر إلى أهدابها أنها تفكر . . وأن عقلها يضطرب وراء تلك الأهداب . .

وقلت لأخرجها من صمتها . .

— لقد سمعتك تعزفين البيانو كأعظم موسيقية فى الدنيا . .

فرفعت رأسها الصغير وابتسمت وتورد خداها . . ونظرت إلىّ فى امتنان . . ولم تتكلم . .

وقالت زوجتى . .

— إنها ترسم أيضاً . . ولها أشغال كانفاه رائعة . . إنها فنانة أنظر هذا مفرش اشتغلته لنا .

— رائع . . رائع . . أين تجدين الوقت لعمل هذا كله . .

وصمتت ثانى لحظة قبل أن تجيب ثم قالت وهى تنظر إلى الأرض . .

— ليس فى الدنيا شىء أكثر من الوقت . . إن لدىّ دائماً وقتاً طويلا . . طويلا . . أريد أن أتخلص منه .

ورفعت رأسها لتنظر إلىّ نظرة خاطفة ثم عادت تعمل فى سرعة وعصبية .

ولكن هذه اللحظة كانت كافية لأن أرى عينيها . .

أرى الوحدة .. والغربة .. والاستسلام الحزين الكامن فيهما .

وكانت تتكلم بصوت خافت كأنها تكلم نفسها ..

ولم أعرف ماذا أقول بالضبط .

ولكن كنت أتمنى أن أسمعها تتكلم أكثر .. ولكنها صمتت وعادت إلى التريكو ..

وقامت زوجتي لتحضر الشاي ..

وقمت إلى البيانو وفتحته .. وبدأت أعبث فى مفاتيحه ..

— أجمل شيء فى الدنيا أن يكون الإنسان موسيقياً .. أنا كنت طول حياتي أتمنى أن أكون موسيقيا .. كانت هذه أمنيتي ..

وأخذت أعبث برهة ثم قلت :

— ألم تكن لك أمنية .. وأنت صغيرة ..

وفوجئت بهذا السؤال :

— أنا ؟ ! !

وترددت لحظة .. ثم قالت فى وداعة وهى تبتسم ..

— كنت أتمنى أن أكون ولداً .. فقد كنت أرى الأولاد حولى يفعلون كل شيء .. وأنا والبنات نستأذن لنفعل أى شيء .. حتى إذا أردنا أن نشرب ..

وجاءت زوجتي بالشاي .. وأخذنا نشرب فى صمت .. وطلبت من نانى أن تعزف لنا شيئاً .

وجلست نانى لتعزف مقطوعتها المفضلة .. وكنت أقف أمامها متكئاً

على البيانو أنظر إلى أهدابها وهى تختلج . .

ولفنى النغم فى موجة من الحزن.

وسألتها . لماذا تعزف هذه المقطوعة دائماً . . وبكل هذا الحزن . . فقالت أنها لاتدرى . .

ولكنها حينما رفعت وجهها . . كانت عيناها مكسوتين بغشاء رقيق من الدموع . .

— ٥ —

كانت الشمس تنام إلى جوارى فى شريط دافىء ممدد بطول السرير . . وكنت أغمض عينى وأحاول الاسترسال فى الأحلام الرقيقة التى أحلمها ولكن الضوء الشديد كان يؤلم جفونى ويدفعنى إلى أن أفتحها . . وأفركها وكانت زوجتى إلى جانبى . . تتكلم كلاماً كثيراً لاأفهمه ثم سمعتها تبكى وتقول بصوت متهدج :

— أنا أعلم أنك حزين من أجل وفاة أبيك . . ولكن ماجدوى هذا الحزن . . منذ شهور ونحن نعيش بعيدين منفصلين كأننا غرباء . . هل أعاد حزننا الحياة إلى الميت . .

وأفقت تماماً على كلماتها . . وتيقظت . . ومسحت على وجهى . . وأنا أفكر فى كلماتها . . كلمة . . كلمة . .

هى تعتقد إذن أن عزوفى عنها سببه حدادى على والدى . .

ولم أعرف . . هل أفرح أم أحزن . . لهذه الطيبة . . وهل هى طيبة أم غفلة !! . .

لو علمت زوجتى بكل ما حدث فى الأيام الماضية . . أتظل على طيبتها أم تبصق فى وجهى ؟!

وتمنيت فى تلك اللحظة أن أقول لها كل شىء . . وأن أكاشفها بالحقيقة ولكنى جبنت . .

ودخلت الخادمة . . وكانت عيناها واسعتين من الرعب . .

— سيدى . . سيدى . . البواب بيخبط على شقة عزيز جارنا من الصبح ومفيش حد بيفتح . .

— لازم خرجوا . .

— مش معقول ياسيدى . . عزيز مسافر والست لايمكن تخرج الساعة دى . .

وقفزت زوجتى من الفراش مرعوبة :

— صحيح . . لايمكن نانى تخرج فى الساعة دى

وهرولت إلى الباب .. وأنا أجرى خلفها .. والخادمة تجرى وراءنا .. ووقفنا ثلاثتنا ندق على باب الشقة بأيدينا فى وقت واحد . . ومرت دقيقتان . . وسمعنا صوتا خافتا يشبه الأنين . . واصفر وجه زوجتى وابيض حتى أصبح فى لون المنديل الأبيض . . وأخذت تهز الباب فى عنف . .

وترامى إلى آذاننا صوت حركة بطيئة . . ثم وقع خطوات تقترب . . ثم تحرك المزلاج وانفتح الباب . وكانت نانى واقفة . . أجفانها ثقيلة وارمة وتحت عينيها غضون زرق . . وهى تنظر إلينا فى دوار النوم . . كأننا خيالات فى أحلامها .

وكان جسمها الصغير يتطوح . .

وأخذتها زوجتى بين ذراعيها ودخلنا . .

كانت الغرف كلها نظيفة منظمة . . وكل قطعة من الأثاث فى مكانها . وفى غرفة النوم كانت الأباجورة مضيئة . . وعلى الكومودينو إلى جوار الفراش . . لاحظت أربع زجاجات لأدوية منومة مختلفة . . وكتاب لبلزاك مفتوح على الصفحات الأخيرة . .

كان من الواضح أنها تأخرت فى النوم وتعاطت دواء منوما لتعالج الأرق . . فنامت والأباجورة مضيئه . . إلى هذه الساعة من الصباح . .

وهذا كل ما حدث . .

وأفرخ رعبنا . .

وجلست إلى جوارها ألتقط أنفاسى . . وأنا أشعر بالحرج . . لقد سرقت منها النوم الذى توسلت إليه بالأدوية .

وذهبت زوجتى لتعد كوباً من الشاى . .

وقمت أنا إلى النافذة . . ألوذ بوحدتى من إحساس ثقيل بالذنب .

* * *

كنت أفكر فى الأربع زجاجات من الأدوية المنومة . . وأنا أقود عربتى بسرعة فى عصر ذلك اليوم . . وفى المقعد الخلفى كانت تجلس زوجتى . . وابنتنا

ونانى . . وكنت أسمع نانى تضحك وهى تداعب إبنى . . وأشاهد صورتها فى مرآة العربة . . وشعرها المرتب فى بساطة . وعينيها العميقتين جداً .

وجلسنا فى كازينو على النيل ، . وكان النيل فى الفيضان . والمياه عالية كبطن الحامل . .

وكنت أشعر بالسعادة وأنا أنظر إلى المياه الحمراء وهى تجرى وتجرى كأنها دم فى العروق يتجدد كل لحظة ..

وكانت الشمس تميل إلى المغيب . . والألوان تتغير بسرعة . وتأخذ معها وهج النهار . وتغطس فى بحيرة رمادية . .

وكانت العمارات على الكورنيش تنطمس رويداً رويداً وتذوب فى ذلك المخمل الرمادى . فلا يبقى منها إلا مساحة طويلة بطول الشاطىء . . مساحة قاتمة بلا معالم . .

وكنت أفيق من الخدر الذى يبعثه اللون الرمادى فى حواسى على صراخ ابنى وهو يجذب أمينه من ثوبها ويشاور بيده الصغيرة إلى المراجيح فى آخر الكازينو .

وأخذته أمينة . . وذهبت به إلى المراجيح . . وهو ينط ويقفز وبقيت وحدى مع نانى . . وكنت أنظر فى عينيها وهما يزدادان

اتساعاً مع الغروب كعيون القطط .. ويبعثان فى نفسى أكثر وأكثر.. ذلك الإحساس الغامض بالعمق . . وكنت أفكر فى زجاجات الأدوية المنومة على الكومودينو . . وسألتها فجأة :

ــ هل تتعاطين منوماً على الدوام ؟

ــ أحيانا . . حينما يطول بى الأرق . .

ــ ولماذا يطول بك الأرق ؟

وسكتت ونظرت فى وجهى مترددة وقلت مشجعاً :

ــ ليس هناك فى الدنيا شىء يستحق أن نهتم به . . كل شىء ينتهى . . الماضى يفوت . . والحاضر يفوت . . وأسوأ مستقبل مثل أحسن مستقبل يفوت هو الآخر . . فيم القلق والأرق . . ولماذا نهتم بأى شىء .

ــ أنت تتكلم كرجل عمره مائة سنة .

وعادت تنظر فى وجهى برقة وتردد . .

ــ ومع هذا فأنت تهتم . . وتقلق . . من أجل أشياء كثيرة صغيرة أحيانا..أليس كذلك ؟؟

ــ نعم . . أحياناً . . لا أنكر .

ــ أترى أنه لافائدة من الحكمة .

ــ ولكنى لا أحب أن تتعذبى مثلى.

ــ أهو اهتمام آخر . . هل أنصحك أنا أيضاً . . وأقول لك أن الماضى يفوت . . والحاضر يفوت . . وكل شىء يفوت . . ولا داعى للاهتمام والقلق بأى شىء أو بأى إنسان .

وسكتت حينما رأتني مستسلماً حزيناً . .

كنت في الحقيقة محتاجا إلى هذه النصيحة أنا الآخر .. وكنت أواسي.. نفسي بلا جدوى . . وضحكت . .

ولمعت عيناها على نبرة اليأس في ضحكتي ونظرت إليّ . .

كانت تبادلني نفس الإحساس المرير بالحيرة . .

— ماذا نريد بأنفسنا . .

— نعم ماذا نريد بأنفسنا . .

وأردفت في حرارة دون أن تفكر :

— أنا أريد أن أحيا . .

— وحياتك التي تعيشينها . .؟!

— وحياتي ! ! . . أي حياة تقصد .

وسكتت في يأس . . ولمعت عيناها بغشاء رقيق من الدموع . ثم قالت في صوت خافت :

— ربما أطلعتك على حياتي يوماً ما . . إني أكتبها . . أحياناً أكتب من فرط اليأس . . ومن فرط الوحدة . .

وتأرجحت على شفتيها ابتسامة واهية . .

وكان يبدو عليها أنها تفكر وأنها مترددة . .

وتلاقت نظراتنا . . وكأن شيئاً ما يشدنا إلى بعض ..

ولم نتكلم .

وقطع صراخ ابني صمتنا . . وكان يجري نحونا وينط ويقفز . . ومن ورائه أمينة .

وجلست أمينة . . وجلس ابنى إلى جوارهـا . . وارتفع صوت الملاعق وفناجين الشاى . . وثرثرة الطفل .

ولـكنى ظللت مشدوداً إلى نانى طول الوقت .

* * *

ولم يتغير الأمر كثيرا حينما عدت إلى البيت . .

وحينما استغرقت فى أعمال مكتبى لعدة أيام متوالية لم يتغير الأمر كثيراً .

ظللت مشدوداً طول الوقت بحبال خفية . . بدنيا أخرى غير دنيا عملى اليومى ومصالح الطعام والشراب وثرثرة كل يوم . . هى دنياها . . وجودها . .

ظلت ماثلة أمامى حاضرة فى ذهنى طول الوقت .

وحينما ألقيت بنفسى فى فراشى آخر الليل كنت أسأل نفسى أية رابطة من حـــديد تربطنا . . وأتذكر علاقتى بفاطمة . . إن الأمر مختلف تماماً .

إن وجود نانى إلى جوارى يفتح لى عالما أليفاً أمشى فيه . . أمشى . . أمشى . . ولا أتعب .

أشعر بروحى تصادقها وتأوى إليها كما تأوى إلى ظل شجرة . بدون هدف . . بدون غاية .

وأشعر بالأغوار العميقة خلف عينيها . تتكشف لى عن إحساسات أعانيها . . وآلام أعيشها وأعرفها . . وكأنى أدخل بيتى . . وأتجول فى غرفتى . . وأجلس تحت ضوء مصباحى الأخضر . .



أشعر برغبة فى الإفضاء . . وإفشاء مكنونى إليها . . وفض أسرارى بين يديها .

ويخيل إلى أحيانا أن بعض كلماتها تصدر عنى . . وكأن الحاجز الذى يفصلنا سقط . وانفتحت فيه ثغرة تتصل منها وتتخاطب ونمتزج .

إحساس غريب يخيم عليه الأمان . . لا تستعجلنى فيه رغبة . . وإنما يتصل فى نهر من الحنين دائم الجريان .

هل كنت أجسم لنفسى هذه المشاعر وأنا نائم بالليل ؟ ؟

هل كنت أحلم وأتخيل ؟

لا أدرى . .

ولكنى حينما تيقظت فى الصباح كنت أحمل هذه المشاعر معى إلى مكتبى . . وأعود بها إلى البيت . . وأنظر بها فى صندوق الخطابات . . وأنقب وأفتح كل الخطابات بلهفة . . وأبحث عن إمضائها . وقد استولى علىّ شعور بأنها لابد مرسلة الأوراق التى تكتبها عن حياتها . لأعيش معها .

كنت أريد أن أعيش حياتها معها .

* * *

كان الخواجه مترى يتحدث فى التليفون بلهجة انتصار . . وحينما وقفت فى النافذة أنتظره . . رأيته ينزل من عربة كاديلاك آخر موديل ويقتحم المكتب . . ثم يقف . . ويمتشق قوامه ويتلفت حوله بنظرة ظافرة ويهتف .

ــ ما رأيك الآن يا أستاذ . . لقد رفضت أن تشترك معنا فى مكتب الاستيراد . . وهذه أول خبطة لنا بعشرين ألف جنيه . مارأيك تعالى افتح دفاترك وقل لى ماذا كسبت من زراعة البصل فى هـــذه المدة بصراحة ؟

ولم أنكر أنى لم أتلق مليما واحداً من البلد . .

ولم أنكر أن المكتب الهندسى الذى أديره فاشل .

ولكنى أنكرت بشدة أنى نادم . . وأنى شاعر بأن نصف عمرى قد ضاع . . فأنا غير مقتنع بالعمل الذى يعمله وأنا ما زلت غير مقتنع به وليست لدى فكرة المساهمة فيه والحكاية ليست حكاية فلوس .

ــ الحكاية ليست حكاية فلوس . . أشكرك . هل تسمح وتتنازل لى عن فلوسك . . وأرضك وأطيانك وتستريح من عنائها . . وتعيش سعيداً بثقافتك . . ما هى الحكاية إذن يا صديقى .

ــ الحكاية هى أن أعيش كما أشتهى . . أكسب على طريقى . . وأعمل العمل الذى أقتنع به .

ــ وهل أنت مقتنع بزراعة البصل فى الصعيد ؟

ولم أجب .

ــ وهل أنت مقتنع بالفلوس التى تخسرها كل يوم فى المكتب . .

ولم أجب . .

وقال الخواجه مترى .

ــ أنا أكلمك كأخ كبير وصديق حميم للمرحوم والدك . أنا

لا تعجبنى أحوالك . ولو تركت نفسك فى هذا الطريق فسوف تصبح على الحديدة بعد سنوات .

وخبطنى على كتفى قائلا .

— إسمع . . ما زالت أمامك فرصة للاشتراك معنا . فكر . . أنا لا أريد أن أخسرك كشريك . . أنا أثق بك وأحبك .. إسمع كلامى .. الأرض نحس . . إخلص منها . . أنت لم تخلق للزراعة . .

وخرج مترى .

وحينما كان يدخل فى عربته الكاديلاك الفارهة . وأنا أنظر إليه من النافذة . . كانت كلماته ما زالت تقرع أذنى . .

هل أنت مقتنع بزراعة البصل فى الصعيد . . هل أنت مقتنع بالفلوس التى تخسرها كل يوم فى المكتب .

والحقيقة أنى لم أكن مقتنعاً بأى شىء من هذا . . أنا لم أخلق لهذه الأشياء . . لم أخلق للزراعة ولا للتجارة . .

والحقيقة انى لم أكن أعرف لأى شىء خلقت .

ولم أكن أعرف ماذا أريد بنفسى .

لم أكن أعرف إلا مقدار خمس دقائق من مشوارى الطويل الذى أسميه الحياة ، هى وقوفى الآن فى مكتب هندسى فاشل لا أمت إليه بصلة . .

وأغلقت دفاترى وأغلقت النافذة . ثم أغلقت الباب بعدم اكتراث ونزلت السلم . . وتركت نفسى أضرب فى الطريق من شارع إلى شارع

فى مشية متراخية إلى بيتى .

وتلقفتنى الخيالات التى كانت تصاحبنى منذ الصباح .. وتذكرتها وتذكرت عينيها .. وتلهفت على حديثها .

وحينما وصلت البيت .. كان أول شىء نظرت إليه هو صندوق البريد .. وهناك كانت حزمة من الأوراق تنام فى الصندوق وعليها إسمى وعنوانى .. وقفز قلبى بين ضلوعى .. وانتزعتها فى لهفة وصعدت السلم وثباً . ثم دخلت غرفتى وأغلقت الباب خلفى : وفتحت الأوراق كانت منها وكانت مكتوبة بالقلم الرصاص فى عجلة وانفعال :

وألقيت بنفسى فى مقعدى : وبدأت أقرأ ..

* * *

أول شخص أعى عليه هو شقيقتى الكبرى والوحيدة .. وأول حادث أذكره هو حادث بين أختى وزوجها .. كل منهما يشتم الآخر ويلوح بيديه فى غضب .. ثم أختى مغمى عليها .. وأنا أصرخ بأعلى صوتى .. وسكان العمارة يهرولون لاسعافها .. وكان عمرى وقتها لايزيد عن أربع سنوات .. وكان ذلك فى قنا مقر عمل زوج أختى مأمور الضرائب الذى يكبرها بثمانية عشر عاما ..

وبعد ذلك وعيت على أبى الطبيب الكبير الذى يخشاه كل فرد فى البيت ويرتجف منه .. وأنا لا أجسر على الوقوف أمام المرآة لأمشط ضفائرى خوفا منه فأدخل الحمام وأغلق بابه من الداخل وأسرح شعرى وجو البيت الملىء بالممنوعات .. ممنوع الخروج .. ممنوع الوقوف فى

البلكون . . ممنوع الذهاب لمنزل خالى إلا بصحبة أحد إخوتى . . ممنوع الذهاب إلى السينما . . والسينما لم تكن ممنوعة فقط ولكنها كانت حراما .. لأن أبى شاهد مرة فيلما عربيا .. وكان رصاصة فى القلب .. فخرج ساخطا من نصف الفيلم وأخرجنا معه لأن البطلة التى كانت مخطوبة أحبت شخصا آخر غير خطيبها وسمحت لنفسها فى يوم عقد قرانها أن تختلى بحبيبها فى الشرفة وتبوح له بحبها . . وهنا ثارت ثائرة أبى . . وظل يلعن السينما والمبادىء التى تنادى بها .. واختتم ثورته بأن حرمها علينا . .

ولكنه بالرغم من شدته وصرامته . . كان طيبا حنونا يمرض إلى جوارنا إذا مرضنا . . ويبكى لبكائنا . . ويطعمنا بيده . ويغنى لنا . . على عكس أمى الجافية القاسية وهى تخرج وتدخل على كيفها . . لا تشغلها إلا شئونها ونزواتها وثيابها وزياراتها وصديقاتها . . ولا يهمها إن كنا نموت أو نعيش .

وأذكر مرة . . بل عدة مرات .. دعواتها بأن يأخذنا الله . . اثنين . . اثنين . . أى والله . . كانت تصرخ بأعلى صوتها . . لو كان ربنا يريحنى وياخدكو . . إلهى يجينى خبركو . . وتطلعوا كل اتنين فى خشبه ! !

لن أنسى هـــذا اليوم . . ونحن ننظر إلى بعضنا فى صمت ونرمقها فى كراهية . .

وكانت أمى هى الصخرة التى تتحطم عليها صلابة أبى وشدته .. كان يقضى النهار فى الصراخ والشجار معها . . فاذا احتواهما الفراش بالليل ذابت ثورته وذاب شجاره وتحول إلى حمل وديع تهدهده على صدرها وتأمره وتلهو به كيف شاءت ..

وكنا نعلم نحن الصغار . . أن أمى تلهو بأبى . . وتمشى على كيفها . .

كنا فى أشهر الاجازة الصيفية نسافر كلنا إلى العزبة . . ويبقى والدى فى القاهرة للعمل فى عيادته . .

وفى العزبة كانت أمى تمرح على كيفها مع عمى العمدة الوارث الجميل الذى لا عمل له سوى ركوب الخيل وإطلاق النار فى الهواء واصطحابه أمى بالليل والنهار . . وضحكاتهما ترن فى الحقول . . وخلف الأبواب المغلقة بالليل . .

وكنا نرى ونسمع ونسكت . . ولا يخطر على بالنا أن أبى يعلم من هذا الأمر شيئاً . . حتى فوجئنا بعد سنوات بخناقة تهتز لها أرجاء البيت وأبى يصرخ بأنه سبق أن نبهها إلى سلوكها المشين فى العزبة فلم ترتدع وتمادت فى علاقتها الآثمة . . وأنه لا يجد أمامه وسيلة الآن إلا الطلاق الطلاق فى سكون حتى لا تضار سمعة العائلة .

وكان معنى هذا الطلاق أن تظل أمى كما هى فى البيت . . ويزورنا هو كالمعتاد فى أيام أجازته على ألا تقع عيناه عليها . . ويكتفى بحرمانها من الميراث والمعاش . . حفظا لكرامته . .

وكان هذا يعنى فى نظر أمى أشد عقاب يمكن أن ينزل بها . . وأنه لأهون عندها أن تحرم من بيتها ومنا ومن سمعتها على أن تحرم من ميراثها . . فلم يكن لها هم سوى جمع المال من أى طريق . . ولو أنها وجدت سوقاً لتبيعنا فيها لباعتنا بأبخس الأثمان . .

وبالطبع انتهت حكاية الطلاق كما تنتهى خناقات كل يوم بمجرد

الدخول إلى غرفة النوم . . وصافى يالبن . . حليب يا قشطة . . واللى كان . . كان . .

وتحول الأسد إلى حمل وديع بعد أول قبلة . . وانتهى كل شىء . . وعادت المياه إلى مجاريها . .

كان هذا هو حال أبى المسكين مع أمى . . وحاله معنا . .

وكنا نغتفر له ضيق صدره وعصبيته لأننا نعلم قلة حيلته .

وأحياناً حينما كان يجمعنا حوله ليحكى لنا القصص . . كنت أرى عينيه تتندى بالدموع . . وهو ينظر إلينا . . ويضمنا إلى صدره . . وكان فى تلك اللحظات يغير موضوع الحديث . . ويبدأ فى إعطائنا درساً فى الوطنية . . ويغنى لنا .

يا مصر ياأم الدنيا حبك فى القلب سكن . .

ونحن نغنى معه . . وهو يدير وجهه إلى الخلف ويمسح دموعه . .

كم أحببت أبى .. كم أحببته.

وبلغت السادسة عشرة فى فبراير وبدأ أبى يلوح بوجوب امتناعى عن الذهاب إلى المدرسة وبقائى فى البيت .. ولم تمانع والدتى على شرط أن يوافق أبى على زواجى . .

وتقدم لى فى هذه السنة ضابط شاب يكبرنى بعشرة سنوات . . يتيم الأب والأم له إيراد خارجى غير وظيفته مستقيم لا يشرب الخمر ولا يلعب القمار وسمعته فى عمله نظيفة . . فقبله أبى وجاء بهلرؤيتى . . ورأيته شخصاً عادياً ليس فيه شىء يلفت النظر . . أما هو فقد أعجب بى جدا

وامتدح جمال وجهى وعينى وشعرى الأسود الطويل وفمى الصغير وأسنانى المرصوصة . . ويوم البسنى الدبلة لم يفته أن يبدى إعجابه بأناملى وبطريقة عنايتى بأظافرى . .

وكنت سعيدة باطرائه لجمالى . . فهذه أول مرة أسمع فيها أنى جميلة جذابة

وداعبتنى الآمال . .

فى المستقبل سوف أستطيع الذهاب إلى السينما . . وسوف أستطيع الضحك والغناء بصوت عال على كيفى . . وتسريح شعرى فى المرآة ووضع الأحمر على شفتى . . والخروج إلى الشارع . . والذهاب إلى المصيف ونزول البحر . . والسفر . . والسهر وألف متعة . . ومتعة . .

وجلس خطيبى يتحدث مع أخى . . وفهمت من حديثه أنه ينتظر الترقية . . وأنه ينتظر أن يعاونه والدى كطبيب كبير متصل بالسراى . . وأنه يعلق زواجه على هذا الشرط .

وسقط فى نظرى . . وسقطت أنا أيضاً فى نظر نفسى . .

إن الجميلة الفاتنة كانت الترقية . . ولم تكن عيونى . .

وكأى رجل عادى يبحث عن صفقة . . كان خطيبى أيضاً يبحث عن صفقة . . ويريد التقرب من السلطان عن طريق الزواج بى . . لم يكن يريد التقرب منى . .

وغضبت كطفلة جرحت فى أحلامها ولويت بوزى . . وكرهته . . وكرهت الزواج . .

وحدث فى ذلك الأسبوع أن جاءت أختى من البلد غضبانة من زوجها وأصرت على عدم العودة . . فهى لم تعد تستطيع الاحتمال أكثر من هذا . . . . مع زوج لا تحبه . ولا تطيقه . . زوج حاد المزاج ضيق الصدر فى سن أبيها . .

وقامت القيامة فى البيت . . بكاء وصراخ وتشنجات من أختى . . وصراخ أشد وتهديدات من والدى . . واجتماعات مع خالى تعقد وتفض

وبعد خمسة عشر يوم وافقوا على الطلاق على أنه درس فقط يعطونه لزوجها لكى يتأدب . . وفعلا طلقت واشترط زوجها أن يأخذ الأولاد وأن يستكتبها اعترافا بخطها بالتنازل عن المؤخر والنفقة وبأنها ليست حاملا وكتبت له ما أراد وألقته فى وجهه . .

وانتهت المشكلة ولكنها ما كادت تنتهى حتى انفجرت قنبلة غيرت نظرتنا للأمر كله . . فقد تقدم لأختى بعد طلاقها مباشرة مقاول صديق لزوجها ومن نفس البلد . . شاب جميل من سنها . . كان يتردد على البيت بحكم صداقته بزوجها . .

وكانت فضيحة . . لم يسع والدى أمامها إلا أن يوافق على الزواج ليغطى على الخبر ماجور . .

وثار خطيبي وبدأ يلمح بكلام جارح . . وثرت فى وجهه وطالبته بفسخ الخطبة ولكنه رفض . . لا لأنه يحبنى . . ولكن لأن نتيجة الترقيات لم تكن قد ظهرت بعد .

وألححت على فسخ الخطوبة ففسختها وشعرت براحة عميقة ليست

بعدها راحة .

واذكر فى تلك الليلة . . وأختى نائمة بجوارى . . أنها سألتنى فى حزن وهى تدخل فى حضنى عن رأيى فى زواجها وطلاقها وكلام الناس . . فأجبت وأنا أكذب . . أنت معذورة . . لقد تعذبت بما فيه الكفاية مع رجل لا تحبينه . . ولولا أن الله يعلم بأنك مظلومة . . لما أرسل لك هذا الرجل لإنقاذك . . والزواج بك . .

فتنهدت أختى وقالت :

ـ آه . . كم تعذبت . . ما أرحم الله . . لقد عوضنى خيراً بعد كل هذه السنين التى صبرتها . . فإنى أعبد زوجى وأشعر من فرط سعادتى أنى أحلم . . وأنى سأفيق على الحقيقة المرة . . أشعر أن قلبى لن يحتمل هذه السعادة . .

أبعد هذا الكلام كنت أستطيع البوح لها بما أنا فيه . . ولكنى كنت فى الحقيقة أتألم . . وكنت خجلى . . وكأنى أنا التى أحمل فضيحتها .

وكنت أريد أن أبكى . . وأتكلم . . وأشكو أحزانى . . ولكن لمن أشكو أحزانى . . لأمى ؟ ! . . وهى عدوتى . . وعارها هى الأخرى على رأسى . . لأبى المسكين ولديه من عذابه ما يكفيه ويكفى العالم . . ؟

لم يكن هناك مفر . . .

كان لا بد أن أتعذب وحدى . . وأحمل آثام هذه العائلة وحدى . . وكانت النتيجة أنى مرضت . . وضعفت . . ونقص وزنى فى شهور إلى أربعين كيلو جرام . . وأصبحت عيناى من فرط هزال وجهى واسعتين

جداً . . ومخيفتين . .

وكان والدى متغيبا فى تلك الفترة فى مهمة طبية بالمنيا . . وأمى سارحة على كيفها تنط كل يوم إلى العزبة ثم تعود سكرانة تغنى فى غرفات البيت بصوت أجش مبتذل . .

وأنا نائمة فى فراشى . . حرارتى مرتفعة . . ورأسى تكاد تنفجر من الحمى . . وقلبي يطحنه إحساس ذليل يائس . .

وبلغنى خطاب من أبى فى ذلك الوقت يصف لى مدى ذعره من حلم رآه . . وهو أنى مريضة طريحة الفراش وحولى أربعة أطباء يفحصوننى . . ثم يرفعون رؤوسهم إلى أبى ويقولون فى نفس واحد . . مفيش فايدة فيصرخ أبى مذعوراً . . ويصحو من النوم ليجد نفسه جالسا فى فراشه والدموع فى عينيه .

ولم يصدق أنه كان يحلم . . فقام لفوره ليكتب إلىّ يسألنى عن صحتى ويستحلفنى أن أرد فوراً وبخط يدى . .

وفعلا كتبت له فى الحال . . وكنت متأثرة جداً فظللت أبكى طول النهار وطول الليل ولم يغمض لى جفن وأنا بين إحساس عنيف بالحزن وإحساس عنيف بالسعادة . . بالسعادة لأن أبى يحس بى ويشعر بى إلى هذه الدرجة . .

وفى الصباح فتحت عينى على صوت أبى وقد جاء فى أول قطار . . . وسمعت لهثاته وهو يصعد الدرج وينادى بصوت عالى وبلهفة . . نانى . . نانى .

وجريت وفتحت الباب . . فتلقفنى فى حضنه وظل يقبلنى ويبكى . .

وأنا أبكى . . وأضع رأسى الصغير على صدره . . فيهدهدنى كفرخ الحمام

يا أبى . . يا حبيبى . . يا ملاكى . . يا إلهى الرحيم . .

عرفت فى تلك اللحظة لماذا لا يطلق أبى أمى على ما يعلمه من إثمها لماذا تشل يده كلما رفعها ليهدم بيته . . لماذا يضعف ويفقد المقدرة ويصبح كالطفل السليب الإرادة . . لأنه يحب أولاده وبيته . . لأنه يحبنى . .

وغفرت له ضعفه . . بل لقد أحببت ضعفه . . وعشقت ضعفه .

ألست أنا ضعفه ؟ !! أنا . .

وبدأت الأقدار تنسج لنا أحزاناً جديدة . .

أنجبت أختى من زوجها الجديد بنتاً . . وبعد سنة حملت مرة أخرى ثم أجهضت . . وبعد الإجهاض بشهور ظهرت عليها علامات سرطان بالثدى رغم أنها كانت فى أوج شبابها ولم تتعد الثلاثين . .

وأجريت لها عملية استئصال للثدى . . وقال الأطباء أن العملية لن تنفع . . وأنها جاءت متأخرة . وأن السرطان سيعاودها فى خلال سنة .

ومضت شهور من الانتظار المفزع . . انتظار الموت . .

وأنا كل يوم أنظر إلى وجهها وهى تضحك فيخيل لى أنها جثة تضحك . . وأدخل فى غرفتى وأبكى بحرقة . . فلم يكن فى إمكاننا أن نقول لها الحقيقة . .

لكم تمنيت أن يصيبنى الله بدائها ويأخذنى لأستريح . فلم يكن لدى شىء أتعلق به . . أما هى فكان لها حب تعيش من أجله . . ورجل تعبده .

وابنة جميلة تعشقها .

كانت الدنيا بين يديها . وكنت وحدى . .

ولكن الموت لا يختار ضحاياه . .

واقتربت نهايتها .

وكانت آلام العظام تفرى جسدها . . وكانت تصرخ وتتشبث بيدى هاتفة فى ذعر..

لاأريد أن أموت . . لا أريد أن أموت ... إنى أفضل أن تطحننى الآلام ولا أموت . .

لا أريدأن أترك زوجى . . حبيبى . . سعادتى . . لاأطيق أن تأخذه إمرأة أخرى منى .

وتمسك بزوجها وتصرخ . .

إحلف لى أنك لن تتزوج بعدى . . إحلف أنك ستعيش تذكرنى . لا أطيق أن تلمس يديك الحنونين امرأة أخرى . . لاأطيق أن تلمس شفتيك شفة أخرى غير شفتى . . إن هذا يقتلنى ألف مرة أكثر من المـــوت . .

وزوجها يبكى ويقبل يديها وقدميها ويؤكد لها أنه لن يتزوج . . أبداً . . أبداً . . مدى الحياة .

ثم يخرج إلى الصالة وينهار باكياً . ويقول . .

لم أعد أطيق عذابها . . إن آلامها تقتلنى . . أتمنى أن تموت لتستريح . . ولكن كيف تموت . . إن موتها يعنى انتهاء حياتى أنا أيضاً . . يارب .

وكانت فى أيامها الأخيرة تهذى باستمرار .. وكانت فى حاجة إلى سهر وتمريض مستمر ..

وطلب زوجها منى ومن أمى أن نبقى معها فى البيت .. لنتبادل السهر عليها .. ولكن أمى اعتذرت بكل بلادة بحجة أنها لا تستطيع أن تترك البيت والأولاد .. ولأنها ليست فى السن التى تسمح لها بالسهر إلى جوار مريضة ..

ومن هى هذه المريضة .. إنها بنتها !!

وكان معنى هذا أن أسهر إلى جوارها وحدى ..

وأن أسمع كلماتها .. كلمة .. كلمة .. وآهاتها .. آهة .. آهة .. وأن أتلقى لهثاتها وشهقاتها على صدرى .. وأن أموت إلى جوارها بالحياة ..

وتلطف الله بها فقبض روحها الى جواره .. وأصبت أنا بانهيار عصبى .. فأخذنى خالى إلى الإسكندرية .

وسافرت وأنا كالمذهولة ..

وبذل خالى وزوجته والعائلة كل ما يستطيعون من جهد ليخرجونى من حزنى وصمتى وانطوائى .. دون جدوى .. ولم يكن أحد منهم يعلم مدى ما أعانيه ..

كنت كلما أغمضت عينى رأيت أختى ميتة وزوجها يحتفظ بجثتها فى المنزل ويأبى أن يدفنها لأنها لاتستطيع فراقه . وتتشبث به وهى ميتة .

* * *

ومرت سنة وذهبنا لرأس البر لنصطاف .

وجاء زوج أختى فى زيارة لمدة ثلاثة أيام . .

ولاحظت خلالها أنه بدأ يغير نظرته لى فبعد أن كان يعاملنى كشقيقة صغرى بدأ ينظر إلى كامرأة . .

ولم أفهم ما يقصده . .

وحينما عدنا إلى القاهرة وعلمت العائلة بزيارته . . أخذوا يباركون لى . . على إيه ؟ ! وسمعت صديقات أمى يباركن لها فى التليفون . . على إيه . .

وأمى تقول لى أنه شىء طبيعى . . وأنه أحسن زوج لى . . أنا . . !! ؟

أتزوج زوج أختى التى عاشت طول عمرها تعبده واستحلفته بحياتها وعذابها ألا يعطى نفسه لامرأة أخرى بعدها . . مستحيل . . مستحيل إنى أموت بلا زواج ولا أتزوجه . مستحيل . .

واجتمعت العائلة حولى . . ليقولوا كلهم فى نفس واحد . .

مستحيل ليه . .

أنت أحق به من الغريبة . . واللى نعرفه أحسن من اللى ما نعرفوش وحاتفوتى البنت لمين . . البنت الحلوة الصغيرة . . بنت أختك اللى حتتمرمط فى إيد اللى تسوى واللى ما تسواش . .

وهو ماله . . أخلاقه ممتازه . . وفلوسه بالألوف . . وإنسانيته . . وعقله . . وحنانه . . وادى انتى شفتى ازاى كان بيعامل أختك . . .

وصرخت . . مستحيل . . مستحيل . . إنتم مجانين . .

ولكنهم أحاطوا بى فى حلقة . . وأخذوا يضيقون الخناق حول عنقى

وسلاحهم العقل .. والمنطق . . وكلامهم معقول وأسوأ ما فيه أنه معقول . .

إنه شخص ممتاز فعلا . . وأنا أولى برعاية بنت أختى من الغريبة .

ولكنى لا أشعر نحوه بشىء . .

ومن أدراكم أنه لم يكن يعامل أختى هذه المعاملة إلا لأنه يحبها . .
وكيف أسلب أختى راحتها وهى فى قبرها وآخذ زوجها . .

مستحيل . . مستحيل . .

مستحيل ليه . . انها حينما تحس فى قبرها أن بنتها . . وديعتهـــا الغالية ذهبت الى يد أمينة . . وأن أختها هى التى سوف ترعاها فإنهـا سوف تفرح .

أنت مغفلة . .

مغفلة .. ربما . .

إن أسوأ مافى كلامهم أنه معقول . .

يارب ساعدنى . .

أبى . . أبى حبيبى . .

أبى يقول لى بسذاجة .. تزوجيه . . انك أولى به من الغريب .. إنه إنسان طيب . . وبنته سوف تكون بنتك . .

أخى يقول لى . . تريثى حتى تعرفى شعورك .. أنها ستكون آخر فرصة لك . .

أمى سافرت إلى الإسكندرية لتعود ومعها البنت . . بنت أختى

آه من البنت . .

أنها حينما رأتني . ألقت بنفسها على صدري واحتضنتني في حب وغمرتني بالقبلات في كل مكان من وجهي وعنقي . . وطلبت أن تنام معي .

وحينما أخذتها في حضني لم يغمض لي جفن طول الليل . كان كلامها يفتت كبدي . . ويقلب تفكيري رأساً على عقب . وجاء هو . بعد أسبوع وفاتحني في موضوع زواجه بي..وصارحته بكل مايدور في رأسي..قلت له أني لست كشقيقتي . . بل أنا على عكسها في كل شيء..في الطباع والأخلاق والصورة وأني لن أستطيع ملء الفراغ الذي تركته. وشيء آخر أهم من كل هذا . . اني لا أحبك كما كانت تحبك هي . . صحيح احترمك وأعزك لأنك شخص مثالي وأحبك كأخ . . ولكني لا أشعر نحوك بشعور الزوجة لزوجها . .

فقال لي :

— إني أكتفي الآن بهذا الحب . . وسوف اترك للزمن أن يجعلك تحبينني كما تحب الزوجة زوجها . . أما عن طباعك وأخلاقك . . فأعتقد أني أفهمك أكثر من أي شخص آخر . . وسأعرف كيف أعاملك . . وأعوضك كل ما فاتك . . أما عن الصورة فصحيح أنت تختلفين عنها كثيراً . . وليس معنى هذا أنك وحشة . . ولكن لك جمالك الخاص بك أما عن الفراغ الذي تركته أختك فأنا لم أتقدم إلا بعد ثقتي في نفسي وفي شعوري . .

وقلت له .

— أنا متأكدة أنك لم تطلب الزواج مني إلا من أجل بنتك . والخالة مهما كانت فهي أرحم من امرأة غريبة . .

فقال فى نبرة تأكيد . .

— أنت مخطئة فى تقديرك . . فأنا أولا وقبل كل شىء أطلبك لأنى معجب بك . . وأنت تعلمين أنى أعيش مع أختى الأرملة . . وأنها تخدمنى وتخدم بنتى . . ولا يدفعنى إلى الزواج بك حاجتى أو حاجة بنتى إلى الرعاية وإنما يدفعنى حبى لك .

وهنا دخلت علينا البنت وقالت فى نبراتها الحلوة :

— مالكم قاعدين تتوشوشو زى المتجوزين كده . . بتقولوا إيه . . بابا ؟ . . بتحب طنط زى ما بحبها.. أنا بحبها قوى ما اعرفش ليه . .

— وأنا كان بحبها يا حبيبتى .

— خلاص مادام بابا بيحبك وأنا معنديش ماما . . ليه متكونيش ماما . . انتى معندكيش ولاد . . وأنا معنديش ماما . . يبقى أنا بنتك وانتى مامتى . .

فأغرورقت عيناى بالدموع . . وتلقفتها فى حضنى . . وقال هو فى صوت حزين :

— ألا يكفيك إسعاد ثلاثة أشخاص أحياء وأعزهم المتوفاة لكى تشعرى بسعادة كبيرة .

فأعلنته موافقتى دون وعى منى . . فقط اشترطت عليه تغيير السكن إذ لا يمكنى العيش فى نفس الشقة التى عاشت أختى وماتت فيها . . وهكذا تزوجت الأستاذ عزيز . . زوجى . . وبدأت مأساتى الكبرى .

— ٦ —

قلت لعزيز إنى لا أستطيع الدخول فى شقة أختى المرحومة وعلى عفشها . . فوعدنى أنه سوف ينتقل إلى شقة أخرى . . وسوف يشترى لى عفشاً جديداً . . ويعطى العفش القديم لأمى . . وطلب منى الإسراع فى إعداد ملابسى الجديدة . . وبدأنا نتشاور فى الأثاث الذى سنجدده .

وبعد عقد القران خرجنا نتمشى بالليل . . وعند عودتنا فوجئت به يشدنى إلى غرفة النوم ويغلقها بالمفتاح . . ويطلب منى حقه الشرعى .

وفوجئت بهذا التصرف من جانبه . . وخصوصاً بعد أن شرحت له حالتى وحاجتى لتغيير الشقة والجو القديم لتستريح أعصابى . .

ولم أكن قد تهيأت بعد لهذه الرغبة . .

كنت مازلت أنظر إليه كأخ أحترمه وأعزه . .

وكانت مفاجأة ارتبكت لها تماماً .

وتم اتصالنا فى نفس غرفة النوم التى كانت تنام فيها الميتة . . وعلى فراشها . .

ولم أشعر بلذة . .

لاشىء سوى إحساس بالإشمئزاز منه وهو يخلع ثيابه . . واشمئزاز من نفسى . . وأنا أنام وأمتثل لكل ما يطلبه . . وفضول ودهشة . . وإحساس بالبلل . . وبالقرف . . ثم إحساس مرير بالذنب فى حق أختى وأنا أسلبها أعز ممتلكاتها . . وأطلب المتعة فى فراشها الذى ماتت فيه . .

ونام هو . .

وظللت أنا صاحية أتقلب على فراش من الشوك وأحملق فى الظلام وشبح الميتة أمامى . . وصوتها يجلجل فى أذنى . . وهى متشبثة بذراع زوجها تصرخ .

— إحلف لى أنك لن تتزوج بعدى يا عزيز . إحلف أنك ستعيش تذكرنى . . لن أطيق أن تلمس يديك الحنونتين امرأة أخرى . . ولا أن تلمس شفتيك شفتان غير شفتى . . إن هذا يقتلنى ألف مرة أكثر من الموت .

وأنا أصرخ وأبكى إلى جوارها وأولول . . يا حبيبتى يا أختى .. سوف تعيشين لزوجك ولبنتك . . لن تموتى أبداً سوف أموت أنا .

وأنتبه لأجدنى فى الفراش . . أنا بلحمى ودمى وإلى جوارى زوجى عزيز نفسه . . وجسدى مازال يبلله العار من آثاره .

ويصحو زوجي ليذهب إلى الشغل ثم يعود قائلا أنه تعب من البحث عن شقة أخرى بإيجار قديم وبخلو رجل . . ويقترح عليّ تغيير نظام الشقة وفتح الحائط بين حجرة النوم وحجرة الأولاد لتغيير المنظر وتحويل الغرفتين إلى غرفة جميلة واسعة . . إلى أن يبنى فيلا . .

— وهل ستبنى فيلا ؟

فيقول . . نعم . . لقد اشتريت الأرض فعلا . . وبدأت أتفق على رسمها وبنائها . . ولكن بالطبع لن أستطيع دفع أقساط بنائها إذا انتقلت إلى شقة بإيجار جديد لأنى لن أستطيع الدفع فى الشقة الجديدة والفيلا فى وقت واحد .

— وهل ستنتهى من بناء الفيلا قريباً ..

— فى ظرف شهور قليلة ياحبيبتى . . إن الحكاية لن تحتاج أكثر من شهور قليلة نصبر فيها على عيشتنا هنا حتى ينتهى البناء . . .

وهكذا صبرنا . .

وبقينا فى تلك الغرفة الملعونة . . لم يتجدد شىء سوى عذابى الذى بدأ يزداد يوماً بعد يوم ليصبح عذاباً رهيباً . .

يصبح الصبح فأقوم لأساعد البنت على الذهاب إلى المدرسة . . وأعد لزوجى فطوره . .

ويذهب إلى عمله وأبدأ أنا فى الإشراف على البيت . . ويتملكنى الشعور بأنى لست فى بيتى . . وإنما أنا زائرة غريبة . . لصة.. كل حجرة تذكرنى بأختى . . كل مقعد . . كل قطعة أثاث . .

إنه لم يتزوجنى أنا . . انه تزوجنى لأنى من رائحة أختى التى يحبها تزوجنى ليتعلل بى حتى يبقى فى نفس البيت . . وفى نفس الغرفة . . ونفس الفراش الذى يحبه . .

ما أنا إلا شبح . . أما الحقيقة التى تملؤه وتملأ قلبه وتملأ البيت وتملأنى أنا أيضاً فهى جسم الميتة وأنفاسها . .

أنا لصة سرقت زوجها منها . . بل هى اللصة التى سرقت نفسى منى . . سرقت حقيقتى . . ووضعت فى مكانها صورتها ورائحتها .

وفى كل يوم أبتعد عنه أكثر . . وأبتعد عن نفسى أكثر وأكثر . . ويتسع الجرح فى داخلى . . وينفصل سلوكى الظاهرى الذى أتكلفه بحكم الواجب . . عن شعورى الداخلى الذى يضطرم داخلى بالنفور . .

وهو لا يشعر بالعذاب الذى أعانيه . . وإنما يثور لبرودى . . ثم يكف عن الاهتمام بى وبرغباتى . . ويأخذ فى معاملتى كشىء اشتراه بالمال . . يأخذ منه حقه الشرعى متى يشاء بالطريقة التى تعجبه . . لا يعبأ باشمئزازى .

ويتحول فى نظرى إلى حيوان . .

وأبحث فيه عن الرجل الممتاز . . والإنسان اللطيف الذى تعودت أن أحترمه فلا أجده .

أن المعاملة السرية والعطف الرقيق المتبادل فى لحظة الفراش . . وحرص كل واحد على شعور الآخر . . وتجاوب النفوس والأرواح . . هو وحده الذى يخلق الاحترام الحقيقى والحب بين زوجين . . أما المظهر

اللطيف فى الشارع وفى الترام وعلى البلاج فإنه لا يكفى ليجعل من الرجل زوجا .

إن الرجال يتغيرون كثيراً حينما يخلعون ملابسهم الرسمية .

ونحن نكذب على أنفسنا حينما نقول إننا سوف نحب أزواجنا بمرور الوقت . .

لقد فهمت هذا بعد فوات الأوان .

لم يكن زوجى ذلك الرجل النبيل الجنتلمان الذى تعودت أن أحترمه وحينما خلع ملابسه . . كان مجرد حيوان .

ولم يحدث شيء بمرور الوقت . . لا حب . . ولا حتى تعود . . وإنما ازدادت كراهيتى . . وازداد نفورى .

وكنت أشعر بالضيق كلما اقترب منى ليأخذ ما يسميه حقه الشرعى وكنت أحيانا أضغط على نفسى لأرضيه . . وأحياناً أعلنه بأنى غير راغبة وكان حينئذ يثور . . ويقول أنه بشر وبدنه له عليه حاجات . . فمن أين يقضى هذه الحاجات . . فأثور أنا أيضاً وأصرخ بأنى بشر . . وبدنى له على حق أنا الأخرى . . ولا أستطيع أن أرغمه على طعام لا يحبه .

وكان يحدث دائماً إذا ضغطت على نفسى وامتثلت لطلبه . . أن أثور بعد هذا لأتفه الأسباب . . وأبكى . . وأصرخ .

وإذا حدث العكس وضغط هو على نفسه . . وامتنع من أجلى . . فإنه كان يثور وينفجر بعدها لأتفه سبب .

وكنت حينئذ وحينما تبلغ ثورته أشدها . . أشعر براحة شريرة فى

داخلي .. لعلها أختي الميتة هي التي كانت تبتهج في داخلي بعذابه .. ولكني كنت أشعر شعورا آخر واعياً بالعطف عليه . . والحزن من أجله .

وهكذا كنت أتراوح بين إحساسات متناقضة .

وبدأ يلجأ إلى أدويةوأساليب طبية ليطيل فى فترة اتصاله بى . وكنت فى تلك الحالات أشعر بلذة . . ولكن اللذة كان يعقبها قىء وصداع وآلام نفسية حادة . . وشعور بالنفور والاشمئزاز من جسمى لأنه يتلذذ وحده كالحيوان دون أن تتلذذ روحى وتنعم نفسى . . ودون أن أشعر برضى القلب .

وكنت أحتقر جسمى . . وأعاقبهوأثأر منه . . وأنظر اليه باشمئزاز كأنه جسد عاهرة باعته فى سبيل قوتها ومصروف يدها .

كانت اللذة تنتهى دائما بنكد لى ولزوجى . .

وأدرك زوجى أنه لا فائدة . . فأسلم نفسه ليأس مرير . .

وبدأ يعاملنى كأنى وسيلة يؤدى بها وظائفه بدون شعور . . بدون تمهيد . . بدون مقدمات .

وتحولت ساعات الليل إلى ساعات عذاب أليم .

وفى بعض الأحيان كنت أشعر بانقباض فى صدرى بمجرد سماع أذان العصر . . ودخول الليل . . من خوفى . . ومن احتمال طلبه شيئا . . وفى أحيان أخرى كنت أنهار وأبكى . . وألطم خدى . . وأشد شعرى .

وكثرت رؤيتى لأختى فى الأحلام .

وكنت أراها فى مرة تغسل ثياب زوجى .. ومرة تخيط لهجواربه

أو تطعم بنتها وتعد لها الشاي واللبن . . وتلبسها مريلة المدرسة .

كانت تروح وتجيء حولى . . وفى عقلى . . وفى خيالى . . وتعيش حياتها البيتية العادية . . التى هى حياتى . . وأنا أنظر إليها . . وإلى نفسى كأنى غريبة تماماً .

وبدأت أغرق آلامى فى القراءة . . كنت أقرأ لزفايج ؛ وأطالع مارسيل بروست . . وبعض كتب بلزاك قرأتها مرتين وثلاثة . . وأحياناً كنت أقرأ الجرائد القديمة . . وأحياناً كنت أكتب . .

وأحياناً كنت أتلهى بالعزف على البيانو . . وكنت أحب المقطوعات الحزينة اليائسة مثلى .

ولكننى كنت أحس فى لحظات أن كل هذا كلام فارغ . . وكنت أمزق الأوراق التى كتبتها . . وأمزق الكتب . . وأمزق شعرى . . وأبكى فى حرقة وصمت .

كل هذا كلام فارغ . .

إن أنوثة المرأة هى كل وجودها . . وحينما تفقد المرأة جسمها وروحها فلا شيء يعوضها . . لا شيء . . لا شيء أبداً .

وفى تلك الأحيان كنت آخذ الأقراص المنومة . . لأنام . . وأقتل سوس القلق واليأس الذى يأكلنى .

كنت أنشد الخلاص من نفسى بأى ثمن . .

* * *

وأخيراً وصلت غرفة النوم الجديدة . . وجاءت معها أمى . . وغيرت

نظام البيت . . وبعد يومين تشاجرنا وسافرت غضبانه لأنها تريد أخذ بعض مفارش أختي بحجة أنها أصبحت زائدة عن حاجتي . . ورفضت بشدة . . وقد أحسست مدى الفارق بيننا . . هي كل تفكيرها محصور في أخذ مفرشين أو ثلاثة . . وأنا أعيش أبكي وأصرخ وأحرم على نفسي حياة وسعادة هي ملكي وحق لمجرد أن أختي اشتهتها يوماً ما . .

وأدركتني رحمة الله وظهرت عليّ بوادر الحمل . . واسترحت من اتصالي بزوجي بضعة شهور أنجبت بعدها طفلا جميلا . . شعرت بالفرحة لأول مرة . . حينما نظرت في وجهه .

وسافرنا إلى بور سعيد . . وفتح زوجي مكتباً للمقاولات .

وكانت حياتنا تبدو من الظاهر رتيبة هادئة ، وكأنما التأمت جراحها ولكنه التئام من السطح فقط . . لأنها كانت تزداد عمقاً يوماً بعد يـــوم . .

ومرت شهور . . وانتقلنا إلى شقة جديدة . . ولاحظت أن حال زوجي ساءت . . وأن أعصابه أصبحت لا تحتمل أي شيء . . وأنه أصبح يثور في وجهي بلا سبب ويظل يصرخ ويشتم ثم يحملق في وجهي . . وتلمع عيناه ببريق مخيف فيه مزيج من الكراهية واليأس والجنون . . وكان يخيل لي ساعتها أنه سيقع فاقد النطق . .

وكان السبب هو سوء حالته المالية . . وتوقف أعمال المكتب بسبب الحالة الإقتصادية .

وكنت أحاول بشتى السبل أن أطيب خاطره بدون نتيجة . . إذا

هونت عليه المشكلة اتهمني بأني لا أقدر الموقف . . وإني أنانية لا يهمني إلا نفسي . . وإذا حاولت التفكير معه . . نهرني وقال : إني طفلة في تفكيري .. وإني لا أفهم شيئاً

وجاءت الست الوالدة.. لا لتزورني ولكن لتقبض حوالى الخمسمائة جنيه تعويضاً عن ثلاثة كباين غمرتها المياه بسبب إهمال البلدية . . والحقيقة أن هذه الكباين كانت قد اشترتها من نقود والدي دون أن يعلم .

وقلت لها أني معذورة .. وفي حاجة لقرشين . . وأن حالة البيت تعبانة .. وإن زوجي عصبي باستمرار بسبب توقف الأعمال في مكتبه . .

فوضعت يدها في محفظتها . وأعطتني ثلاثة جنيهات . . ولم أعرف ماذا أقول . . وبماذا أشتمها . . وألقيت في وجهها النقود .

وقعدت أصرخ وأبكي . . وزوجي يصرخ في وجهي . . دي مش عيشة . . إيه القرف ده . . أنا ذنبي إيه أستحمل النكد المستمر ده . . إنتي اتخانقتي مع أمك . . تقوم هي تسافر مبسوطة . . وأنا اللي أشرب المر هنا . .

وأبكي فيزداد صراخه .

وبدأت أفكر جديا في وضع حد لهذا العذاب .

كان الطلاق غير مجد . . فقد فات الأوان وتحولت إلى عجوز صفراء كالحة في سن الثلاثين . . امرأة ذاهلة تائهة لا تصلح لشيء .

ولم تكن لي حياة أخرى أحياها . . أو بيت آخر ألجأ اليه . . أمي تكرهني وأنا أكرهها . . وسوف تطردني من بيتها إذا لجأت اليها .

وإذا طلقني زوجي فلن يكون أمامي حل سوى الإنتحار .

كانت حياتي كلها يأس في يأس المخرج الوحيد فيها هو الخضوع والقبول والاستسلام . .

وبدأت أقتل في نفسي كل إحساس . . وأعيش جسداً بلا روح . . أتحرك في فراغ مفزع . . وملل قاتل . . وأنام فألبث في فراشي بلا حركة لا أنا بالنائمة أو بالصاحية . . وإنما راقدة في خمول شنيع . . أقوم من رقادي لأرقد من جديد . .

وبدأ يشتمني فلا أرد . . ويسبني بألفاظ بذيئة فلا أجاوبه . ويثور في وجهي ولا أتكلم .

وإذا به يصرخ فجأة :

إنتي ساكته كده ليه . . عاوزه تفرسيني . . حد مصلطك عليه . . عاوزاني أتجنن . . عاوزاني أطلقك وأخلص . . طيب إنت طالق . .

ووقف يطلب والدي في التليفون ويبلغه أني طالق .

ونام ليلتها في حجرة أخرى . . وبت أنا أفكر في مصيري . .

لا شيء أصبح يجدي . . خضوعي أصبح يثيره . . وهياجي يثيره . . وها أنا مطلقة . . بلا أمل . . بلا بيت . . بلا صدر حنون ألجأ إليه .

واندفعت الى موسى حلاقه وجدته أمامي . . وقطعت شريان ذراعي وأغمي عليّ . . وكان آخر ما سمعته صوت الخادمة وهي تصرخ . . دم دم . . دم . .

وحينما أفقت كان زوجي راكعاً إلى جواري يقبل يدي . . وقدمي .

ويبكى ويتوسل .. ويقول أنه سيفعل المستحيل لإسعادى .. وأنه لن يتركنى أبداً مهما حدث .

* * *

وأنقذونى من الموت لأموت بطريقة أخرى .. ببطء .. فى البيت الواسع .. والحجرات التى لا أعرفها .. والرجل الغريب الذى يضمنى كل ليلة على أنه زوجى .

والملل .. والفراغ .. والحياة التى بلا معنى .

وكل يوم مثل الآخر ..

وأنا أقرأ .. وأكتب .. ثم أشعر أنه لا فائدة من أى شىء .. فآخذ الحبوب المنومة لأنام .

ولا أحد يشعر بى ..

آه يارب ..

ماذا فعلت لأتعذب ..

وما هو الأمل الذى أتحمل من أجله كل هذا العذاب .

إن الناس يضحون بأنفسهم من أجل شىء .. وأنا .. من أجل أى شىء أضحى ؟!

إنى أخسر كل شىء .. حتى نفسى .. وليس لى إلا نفس واحدة أعيشها ..

وانتهت المذكرات

* * *

وعدت أمسك حزمة الأوراق .. كأنها حزمة من الأعصاب لا من

الأوراق . .

هـذه هي نانى . . وهذه هى القصة التى كنت أبحث عنها خلف عينيهـا . .

وضعتها بجانبى فى رقة كأنى أوسد جريحاً . . وعادت كل كلمة فيها ترن فى أذنى . . كل شخص يطاردنى . . ويتمثل لخيال . . وكأنى أعرفه من زمن بعيد . . وكأنى عشت معه . .

كلهم تجمعوا حولى . . الأب الحنون الذى يتعذب فى صمت . . والأم القاسية . . والأخت التى ماتت وبعثت . . بعثت فى دمى أنا أيضاً . . والزوج ونانى .

لم يعودوا يتحركون وحدهم . . أصبحت أتحرك معهم . . وأشاركهم مصيرهم .

وخلف الظروف التى تباعد بيننا وجدت الخيط الذى يربطنا نحن الإثنين أنا وهى .

كل منا ضاعت حياته .. وهو يبحث عنها .

ضاعت نفسه . . وهو لا يجدها .

كل كلمة قرأتها وثقت هذا الحبل الخفى . . وعقدت بيننا ذلك القران الحرام الذى لا مفر منه .

إنهـا لاتعرفنى . . ولكنها مع هذا قد سلمتنى مفاتيح عالمها الخاص لأدخل فيه .

ولعلها عرفتنى بما فيه الكفاية حينما نظرت فى عينى فوجدت نفس

العالم الذى تسكنه . . وشعرت بأواصر الضياع التى تربطنا دون أن نتكلم .

نانى . .

أشعر بها قريبة منى . . أشعر بها حولى . . فى داخلى . . إلى جوارى أحبها . . أحبها . . بنفس اليأس الذى تكره به زوجها .

نانى . .

ولم أستطع أن أصبر . .

ولم أعرف ماذا أفعل بالضبط . . وإنما وجدت نفسى أدير قرص التليفون على رقمها .

— نانى . . أريد أن أراك فى الحال .

وكان صوتى يرتجف من العاطفة .

ولبثت صامتة برهة على الطرف الآخر من التليفون .

وسمعت صوت لهثاتها . . وصوت أفكارها . . وصوت قلقها . . ثم أجابت فى استسلام . . وبلا وعى . . فى يأس . . كأنها امرأة تمشى فى نومها . .

— طيب . .

* * *

كانت تجلس إلى جوارى فى العربة . . وأنا أسير ببطء فى طريق خال على أطراف القاهرة . . وكانت تقول لى :

— هل قرأت الأوراق كلها ؟

— وعشت فيها . . كلمة . . كلمة

ــ وهل تجد أن لى حلا .

ــ أنا لا أجد لك ولا لنفسى حلا

والتفتت إلىّ فى دهشة .

ــ وما دخلك أنت ؟

ــ وما الذى جعلك تلقين بين يدى هذه الأوراق على خطورة ما فيها ؟

ــ لا أدرى . . ولكنى كنت أشعر دائماً أنك لست غريباً عنى . . كنت أشعر إنك وحيد تماماً مثلى .

وسكتت لحظة ثم أردفت .

ــ أليس هذا غريباً . . أن يشعر رجل بالوحدة . . إن الدنيا كلها دنيا الرجل . . إنكم تستطيعون أن تفعلوا كل شىء .

ــ وما جدوى أن نفعل أى شىء . . إننا نريد ما تهواه أنفسنا ..

ــ وما الذى تهواه نفسك .

ــ أريد أن أعيش . . أريد أن أحب وأتزوج وأنجب ولداً .

ــ ألم تشعر إلى الآن أنك قد تزوجت وأنجبت ولداً .

ــ إنى أشغل وظيفة زوج وأب . ولكنى لست متزوجاً . ولا أباً .

ــ ولكنكم تستطيعون تغيير وظائفكم أحياناً يارجال . تستطيعون الطلاق والزواج مرة . . وأخرى .

ــ ليست لدى القوة ولا القسوة الكافية لأفعل هذا .. أنا أضعف من أن أغير حياتى . . وأقوى من أن أقبلها .

ــ انك تتكلم مثلى . . أنت الرجل . . من يصدق هذا ؟ !

وسكتت لحظة ثم قالت :

— ومع هذا فلا أحد قد أكرهك على هذه الحياة . . لم يزوجك أحد عنوة . .

— لم أتزوج عنوة . ولكني تزوجت خلسة دون أن أدرى . .

— وما ذنب زوجتك . . وما ذنب الولد الصغير . .

— ليس لأحد ما ذنب . . إنى لا أشكو أحداً . .

— ها أنا ألومك . . وأنا غارقة فى الذنب حتى أذنى . . ماذا أقول ماذا أفعل . . ما الحل .

— الحل هو أن نحلم .. أنا شخصياً أبحث عن حلم أنشغل به وأتوه فيه .. ولكنى متقيظ . . متيقظ دائماً . . وهذه اليقظة تعذبنى . .

— ولكنك رجل . . أليس كذلك . . والرجل يستطيع أن يغرق همومه فى عمله .

— إن عملى مثل زوجتى . . غريب عنى . . لا أحبه . . أنا أملأ به وقتى فقط . . ولكنى أريد أن أملأ نفسى . . إن الفراغ الكبير هنا . . داخلى . . أشعر أنى عاطل تماماً . . أشعر بالملل يقتلنى .

— إنك تعذب نفسك بدون داع .

— أريد أن أشعر بالحماس . أريد أن أتحمس .. أريد أن أتحمس لشىء ولو كان هذا الشىء ارتكاب جريمة . . إنى أحياناً أحسد المجرم لأنه ارتكب جريمته فى غل . . أنا أريد أن أشعر بالغل نحو أى شىء .

— ألم تحب . . ألم تشعر بالحب مرة فى حياتك .

— أحياناً أقنع نفسى أنى أحب هذه أو تلك . . ولكنى لا أستطيع أن أستمر فى الكذب على نفسى طويلا .

— لا شك أنها تكون مغامرات مسلية .

— إنها تكون مسلية فى البداية . . لكنها تكون قاتلة فى آخرها . . حينما أشعر أنى قد فقدت القدرة على السعادة إلى الأبد .

— إنك تبالغ . . لا شك أن تبالغ كثيراً . . إن الدنيا فيها لحظات سعيدة بالرغم من كل هذا . . إنى أحياناً أجد السعادة فى أشياء صغيرة جداً . . فى نظرة من عين ولدى .

كانت تحاول أن تسرى عنى . . وكان يبدو على وجهها أنها تشعر بالراحة . . وكنت أشعر بالراحة لأنى وجدت إنساناً أيأس معه .. وأمل معه . . وأسخط على الحياة معه .

أكان حباً ؟

أكانت أنانية منا نحن الإثنين . . كل واحد يجد نفسه فى الآخر . . يجد مصداق حياته ماثلا أمام عينيه .. لا أدرى .

كل ما أعرفه أنى كنت أريد أن أتكلم . . وأتكلم . .

لم أكن أريد أن أكف عن الكلام .

وكنت أشعر أن الوقت ضيق . . وأن ما أريد أن أقوله كثير . . كثير جداً .

ولم أفق من الحمى التى كنت فيها إلا حينما نبهتنى إلى أن الوقت متأخر وأننا يجب أن نعود إلى البيت . .

ولكنى ما كدت أعود وأستقر وحدى فى غرفتى حتى شعرت بحاجة شديدة إلى أن أكلمها . . وما لبثت أن رفعت السماعة فى تردد . .

كانت وحدها . .

وقالت لى أنها كانت على وشك أن تطلبنى .

شعرت بسعادة لا توصف . . وقلت لها فى أسف .

ـــ أنا أشعر بخجل شديد . . لأنى قضيت كل الوقت معك . . وأنا أتحدث عن نفسى . . كانت أنانية منى لم أكتشفها إلا حينما عدت إلى البيت . . إغتفرى لى سوء أخلاقى .

ـــ إنك دائماً تحاول أن تحمل نفسك ذنباً . . لماذا تضطهد نفسك.

ـــ أنا لا أضطهد نفسى . ولكنى لا أريد أن أكون هما يضاف إلى همومك . . لا أحب أن أكون طفلا كثير الصراخ يضاف إلى أطفالك فلديك ما يكفيك .

ـــ أنت لست طفلا . . أنت عجوز جداً . . يخيل إلىّ أنك ولدت عجوزاً كهلا . . إنى أشك فى أنك عرفت الطفولة يوما ما .. إن الطريقة التى تمشى بها . . والطريقة التى تنظر بها . . هى طريقة رجل كهل جرب كل شىء . . وانتهى من كل شىء .. ويئس من كل شىء .

ـــ هذا صحيح . . أنا أشعر أحيانا أنى عجوز جداً .

ـــ أترك نفسك على سجيتها . . لا تضطهد نفسك بكل هذا التفكير . دعنى أكون طبيبتك النفسية ..

ـــ حاضر يا دكتورة . . وماذا عندك من تعليمات أخرى .

ـــ حذار من المغامرات المسلية .. فإن قلبك العجوز لم يعد يحتملها.

ـــ حاضر .

ـ وابحث لنفسك عن عمل تحبه .. عمل مضنى مرهق لتشغل نفسك به طول النهار وتعود متعباً لتنام .

ـ لقد وجدت هذا العمل من الآن.

ـ ما هو ..

ـ أنت . . أنت ستكونين عملى المضنى الذى أحبه . . وأشغل نفسى به طول الحياة .

وسكتت لحظة . . ولم تجب . . وسمعت صوت لهثاتها . . ثم قالت باضطراب .

ـ لقد اخترت عملا يائساً . . خاسراً . . لقد اخترت سماً تتعاطاه ولم تختر دواء . . أنت تريد الموت لا الحياة .

ـ لقد فقدت القدرة على أن أعيش كما أشتهى . . دعينى أمت كما أشتهى .

ـ أنا أحمل من الذنوب ما يكفينى .. لا أريد أن أحمل ذنبك أنت أيضاً . . لقد حطمت حياتى . . ولا أريد أن أحطم حياتك معى . . أنت أغلى من أن أختار لك هذا المصير . . أنا أريد لك السعادة .

ـ أنت سعادتى . . أنا أحبك . . أحبك يا نانى .

وسكتت .. هذه المرة سكتت طويلا . . وسمعتها تبكى بحرقة .

٧

كنت أقف أمام الحوض . . رأسى تحت الحنفية . . والماء ينزلق على شعرى . . وعيناى مازالتا مثقلتين بالنوم .

ومن خلفى كانت أمينة تحمل الفوطة . . وكنت أسمعها تتكلم . . وصوتها مبحوح من البكاء طيلة الليلة الماضية . . ولكنه ثابت . . جاد . . فيه نبرة شديدة لم أتعوّدها :

كانت تكلمنى عن أطيانى فى الصعيد . . وعن خطاب جاء من عند الخولى . . يطلب نقوداً للزراعة . . وكانت تقول أن والدى كان يذهب بنفسه . . ويباشر العمل . . ويفتش على أرضه وزراعته . . وأنى أهملت كل شىء . . وأن الفلاحون يسرقوننى . . وأنى سوف أفقد أملاكى وثروتى إذا لم أفتح عينى جيداً . . وكانت تتكلم بشدة .

ـ لا بد أن تسافر للصعيد . . وتباشر أرضك بنفسك . . إن أباك
لم يجمع هذه الأرض بسهولة . . لقد ضيع فيها عمره . .

وأحسست بالخجل من نبراتها .

وأحسست بالضيق لأنها ذكرتني بالمسئوليات .

وأخفيت وجهي في الفوطة ورحت أحك رأسي عدة مرات . . وأنا
مازلت أمضغ ذلك الضيق الذي استولى عليّ .

وذهبت إلى مكتبي . . ورحت أفض الخطابات . .

كان لابد من السفر إلى الصعيد . . ومباشرة الزراعة فعلا . . فلا أحد
هناك سوى الخولي . . وهو يفعل كل شيء على هواه . . يزرع ويجمع
ويحصد ويبيع ويشتري . . ويكتب ما يشاء من مصاريف وإيرادات . .
ويأخذ ما يحلو له ويدفع ما يحلو له . .

كان من الواجب عمل شيء .

وضايقتني كلمة الواجب .

وحينما بدأت أعد الحقائب للسفر أحسست أن أرضي هي التي تملكني
. . ولست أنا الذي أملكها . .

هي التي تجثم على أكتافي . . وتركبني . . وتسوقني . إلى حيث
لا أريد . . لأن الواجب كذا . . وكذا . .

أف من الواجب .

الصعيد ؟ !

مالي أنا ومال الصعيد ! !

أنا أريد البقاء بالقاهرة . . إلى جوار الدفء الجديد الذى أخذ ينبعث حولى . .

فى الشارع الذى أخضرت أشجاره فجأة وأورقت وأزهرت .

أمام الشباك الذى تناديني منه الشمس .

والتليفون الذى يهمس فى أذنى بكلمة الحب . .

ولكن الواجب . . الواجب . . وشعور بالخجل يملأنى فأتصاغر فى نظرى نفسى إلى مجرد طفل يبدد الثروة التى جمعها أبوه .

وأكره نفسى وأكره ثروتى . . وأتمنى الخلاص من الأرض التى تقيدنى . .

إن أبى مازال يحكمنى . .

إن الفدادين الملقاة على أطراف سوهاج . . هى روحه . . هى رغبته هى كلمة الواجب التى كان يطاردنى بها وأنا صغير .

* * *

وصفر القطار طويلا . وألقيت بنفسى فى عربة النوم . .

وأحسست بذهنى يصفو وروحى تهدأ . . وذابت الدوشة التى كانت تأخذ بتلابيبى كما تذوب الرغوة التى تعكر وجه الفنجان . . وبدأ ذلك الشىء الغامض الذى يحيرنى يطفو - شيئاً فشيئاً من أعماق .

ها أنذا فى النهاية ملقى فى عربة تجرى من بلد إلى بلد . من مكان غريب إلى مكان غريب . . لا شىء يشعرنى بالألفة سوى إحساس فى داخلى أطويه

عليها . . على خيالها .. على إسمها .

إسمها يشعرني بالألفة . . بأني مع نفسي . .

وتذكرت كلماتها وهي تقول لي .

— أنت تعذب نفسك بدون داع . . أنت تبالغ . . تبالغ كثيراً . . إن الدنيا فيها لحظات سعيدة بالرغم من كل هذا . إني أحياناً أجد السعادة في أشياء صغيرة جداً . . في نظرة من عيني ولدى . . إنك عجوز جداً .. يخيل إلى أنك ولدت عجوزا كهلا . . أن الطريقة التي تمشي بها والطريقة التي تنظر بها . . هي طريقة رجل كهل جرب كل شيء وانتهى من كل شيء ويئس من كل شيء . . لماذا تضطهد نفسك بكل هذا التفكير .

وصوتها الحنون وهي تهمس .

— أنت أغلى من أن أختارلك هذا المصير .. أنا أريد لك السعادة.. لقد حطمت حياتي ولا أريد أن أحطم حياتك معي .. أنا أحمل من الذنوب ما يكفيني . . ولا أريد أن أحمل ذنبك أنت أيضاً .

بل احملي ذنبي أنا أيضاً . . وحطمي حياتي .

أنا أريد أن أشعر بالولاء لأي شيء ولو لدماري .

أريد أن أعثر على رغبتي الضالة . . ونفسي المفقودة . . فيك أنت . نانى . . نانى .

وظل إسمها في أذني .. طول الطريق والعجلات تجلجل تحت الوسادة حيث أضع رأسي . . والعربة تهتز واللمبة الكهربائية في السقف ترتعش

ويخبو نورها ثم يتألق . . ثم هدأت سرعة القطار . . وسمعت صوت الفرامل . . ثم توقف القطار تماماً .

وظننت أنها محطة .. وفتحت النافذة ولكنى لم أجد محطة . . ورأيت القطار يقف فى العراء وسط الحقول . . والدنيا ليل . . والظلمة حالكة ولا صوت هناك سوى صوتنا ونحن نطل من النوافذ وتتكلم . . يقاطعنا بين حين وآخر صوت ذئب يعوى فى الحقول .

وقال الكمسارى أن هناك عطلا فى الخط وأن القطار سيتوقف نصف ساعة .

ودخلت عربتى ولبثت فى فراشى ونظرت فى نور اللمبة الذى خبا تماماً وثقلت أجفانى . . ونمت . .

لم أتيقظ إلا والكمسارى يدق الباب بشدة ويصيح . سوهاج .

وقمت إلى حقيبتى أسويها . . ولبست ثيابى وفتحت الباب ونزلت مسرعا .

* * *

سلامات . . والله سلامات . . كيف الحال فى مصر . . طيبون حلت البركة .

ده الصعيد نورت .

ألف حمد الله على السلامة .

روح يا واد لعمك بشاى عيط عليه . . جول له إن البيه وصل من مصر . . والله سلامات . . والله مرحباً . . مشتاقين .

الإخبارية وصلتنا ليلة البارحة . جينا لتونا فى الحلزونة (الأتوبيس) ومن الصبح واحنا واجفين عاد . . كل ما ييجى جطر نجول أهو وصل ونطل ما نلاجيش حد .

إن شاء الله تكون مبسوط .

كان المتحدث هو سركيس أفندى .. الكاتب .. والخولى الذى يدير زراعتنا . . وكان يهب واقفاً كل دقيقة ويشد على يدى ويهزها فى عنف ويهتف .

إن شاء الله تكون مبسوط . .

وأنا فى كل مرة أهب واقفاً مثله . وأشد على يده . . وأمرى لله .

وكان يصاحبه فلاح طويل هزيل كالح البشرة . . أشيب الشعر . . يشبه الجرادة . . عيناه ضيقتان حمراوان غائرتان . . وهو لا يكف عن وضع أصابعه فيهما بين لحظة وأخرى ويفركهما بشدة .

وركبنا عربة بالأجرة أخذتنا إلى الأرض .

واستقبلنا الخفراء بإطلاق النار فى الهواء .

وتجمع الفلاحون حولنا . . وكادت يدى تنخلع من كثرة المراحب والسلامات .

وكان الجو صحو والسماء صافية . . ولكنى كنت أشعر بانقباض . .

كانت الوجوه التى تبتسم حولى هضيمة كالحة غبراء . . وكانت إبتسامتها شاحبة . . وكان فيها شىء ثقيل . . مثل التراب الذى فى الجو . . والجفاف والسخونة والهواء الراكد .

ودخلنا الاستراحة . . وكان الخفراء مازالوا يطلقون النار فى الهواء والحمام يطير فى فزع من أبراجه ويحلق فوق رؤوسنا .

وكان سركيس أفندى مازال يثرثر ويتكلم كلاما كثيراً . . يقطعه بين حين وآخر هاتفاً . .

انشاء الله تكون مبسوط . .

وجلست أدخن وفتحت الدفتر أمامى . . وجرت عينى على السطور

١٢ نفر لعزيق الفدان قمح بواقع ١٢ قرش يومية للنفر . . المجموع ١٤٤ قرش . .

٦ أنفار لسقية الفدان بواقع ١٢ قرش للنفر . . المجموع ٧٢ قرش .

٣ أكياس سماد للفدان بواقع الكيس ٥ جنية . . المجموع ١٥ جنيه

احتياجات الماكينة عن أربع سقيات للفدان ٤ جنيه

أجرة مشال المحصول للجرن بالجمال ١٢٠ قرشاً

أموال مقررة . .

٢٥٠ قرش رسوم بلدية .

١١٠ قرش ضريبة جراد .

ومررت على الأرقام بعينى عدة مرات . . دون أن أفهم شيئاً .

وخرج سركيس أفندى إلى الحقل ليحضر فرساً أركبه . . وبقيت وحدى مع عوضين الفلاح الذى يفرك عينيه

سألته : لماذا يفرك عينيه هكذا فقال أنه ذهب إلى الدير البارحة وأخذ ترابا من كنيسة العدره وضعه فى عينيه . . ثم ابتسم وأردف :

— دى الحمد لله كتير . . دى كانت وارمة البارحة زى عين الجمل . . قدس أبونا هو إللى طيبها . .

ولم أجد كلاما أرد به على الرجل . . وعدت اقرأ الحسابات . .

١٠ أنفار لرى الكيماوى بواقع ١٢ قرشاً يومية للنفر . . المجموع ١٢٠ قرش للفدان .

نصف أردب قمح تقاوى بمبلغ ٣ جنيه . .

وتنحنح عوضين . . وفرك عينيه وسعل . . وهمهم . .

— طيبون . . دى الصعيد نورت

وسكت قليلا ثم أردف :

— أنا لى مصلحة عندك ياسعادة البك ربنا يخليك .

— خير . . يا عوضين .

ورفعت رأسى من الدفتر ونظرت إليه . .

— والله بدى كام فدان أأجرهم منك السنة دى عشان الزرعة الشتوية

— إنت مش بتشتغل عندنا . .

— لا والله . أنا مأجر كام فدان جاركم فى حوض أحمد بك . . وبالى أزرع كام فدان عندكم السنة بالايجار .

— نأجر لك ياعوضين . . أما ييجى سركيس أفندى . . نشوف . .

— ربنا يخليك ياسيدنا إلبك .

وخطر لى أن أسأله عن الزراعة .

— والزراعة حالها كويس السنة دى ياعوضين .. محصول القمح ازيه .

— عال والحمد لله . . البركه فيك .

ـــ رميت كيماوى قدإيه فى الفدان

ـــ كيس . . الخمس فدادين خدوا ١٥ جنيه كيماوى

ـــ وكنت مشغل أنفار كتير . .

ـــ ثمان أنفار فى الفدان

وكنت أنظر فى الدفتر واقرأ الأرقام العالية التى كتبها سركيس أفندى . .

كان من الواضح أنه سمسر فى كل عملية على أساس أنى لا أفهم شيئاً فى الزراعة .

وأغلقت الدفتر . . وأنا أفكر فى حل . .

وحضر سركيس أفندى ومعه الفرس وركبته وانطلقت . .

وتجولت فى الحيضان المجاورة أسأل الفلاحين . . وتأكد لى أن الخولى يسرق منى . . ومن عرق الفلاحين . . ومن كل حبة قمح وعود قطن .

وعدت وقد صممت على شىء .

ناديت الخولى وأمرته بأن يسلم عهدته إلى عوضين . .

وقلت لعوضين . . إنى سوف أعطيه خمسة فدادين يزرعها لنفسه فى مقابل إشرافه على الأطيان وعمله كخولى عندى .

وبهت سركيس أفندى ولم يتكلم . . ودعا لى عوضين بطول العمر . .

وانصرفت إلى البندر وأنا أشعر براحة . . وأحس بأنى رددت الأمور إلى نصابها .

ونمت فى اللوكاندة . .

ولكنى تيقظت فى الفجر على البعوض يأكل وجهى . . وعلى خبر

مفاجىء سرى فى كل البلدة . . أن عوضين وجد مقتولا فى حقله . والفاعل مجهول .

وحضر سركيس أفندى فى الصباح إلى اللوكاندة . . وكان يحمل طبنجة على صدره . . ويصاحبه خفير الغيط .

وقال لى أن عوضين وجد مقتولا . . الأشقياء قتلوه على تار بايت مسكين عوضين . .

وأردف وهو ينظر إلى نظرة جامدة .

— تشوف حضرتك نعين مين خولى بدله عشان يشوف الأرض ؟

— إللى تشوفه يا سركيس أفندى

— أمرك ياسعادة إلبك . .

وعاد ينظر إلى نظرته الجامدة الجافية وعيناه لا يهتز لهما رمش .

وأجبته وأنا اتجنب النظر إلى عينيه .

— شوفها إنت ياسركيس أفندى . . بس خد بالك من الحسابات شويه

— أنا محسوبك ياسعادة إلبك

ودار على عقبيه وخرج . .

وظلت خطواته تلاحقنى وتدوى فى أذنى مدة طويلة . .

وأدركنى اليأس . .

ولم أستطع أن أبرىء نفسى من الجريمة .

لقد قتلت رجلا . .

بعد ساعة من وصولى الصعيد قتلت رجلا .

وتذكرت كلام الخواجة مترى . .

أن الأرض هى لحم الفلاح . . والذى ينتزع من الفلاح أرضه ينتزع لحمه . . ولا فائدة من أن تقول للفلاح أنت تخرق القانون . . فماذا يعنى القانون بالنسبة لرجل جاهل . .

إن رجليه تغوصان فى الطين . . وحياته ينهش فيها المرابى وبنك التسليف والمالك والمستأجر وسركيس أفندى . . كل واحـــد يطلق عليه الرصاص .

* * *

ومر يومان على إقامتى بالصعيد

النتيجة على الحائط تقول إنى فى عام ١٩٥١ . . ولكن كل شىء حوله يمشى ببطء جدا . . عشرات السنين وراء التاريخ .

القسوة فى كل مكان . . فى الحر . . فى التراب . . فى الجفاف . . فى الأرض . . فى الفيضان . . فى الوجوه . . فى العيون . فى الثمن الذى يدفعه كل إنسان فى مقابل اللقمة . .

الفلاح الذى يمرض مقدما بالبلهارسيا والملاريا والرمد قبل أن يعى وجوده . . ثم يمشى يلهث ويجر قدميه . . ويعزق . . ويحرث . . ثم ينازعه جاره على قيراط برسيم ويقتله . .

والفلاح الآخر المحظوظ الذى يملك فدانا ويعيش كالجرادة على حافة الترعة . . لا يعرف السينما ولا الساعة ولا الدكتور . . ثم يضع حفنة من تراب العذرة فى عينيه . . ويعطيه رجل مبروك حجابا يعلقه على صدره ليشفى . . بينما يذهب المبروك ليداوى عينيه فى القاهرة عند طبيب العيون . .



والتاجر الريفي العبيط الذي ينظر إلى البورصة كما ينظر إلى السماء والقدر .. وكرامات الأولياء .. ويفلس بغباء .. ويموت بغباء كما يموت حماره دون أن يعرف السبب .

وابن العمدة الوارث الذي ينفق أمواله على راقصة في مصر ويموت من الخمر والمخدارت .

كل هؤلاء ينبحون ويتعاوون .. كأنهم في غابة .

قسوة الحياة تبتز أرواحهم .. وأخـــلاقهم .. وتحـولهم إلى أجلاف غلاظ .

وقد أحسست بهذه الغلظة تتسرب إلى وتدفعني إلى رفع صوتي بالسباب والشتائم .

سنة واحدة أعيشها هنا .. وأصبح مثلهم .. أتـكلم بغلظة .. وأقتل وأسرق وأنهب ..

لقد نسيت ذقني فلم أعد أحلقها .. ونسيت هندامي .. ورباط عنقي

ونسيت الرجل الذي قتل من أجلي .. عم عوضين .. الذي أطلقوا عليه الرصاص .. لأني اخترته ليدير زراعتي .

من الذي قتل عوضين !!

سركيس أفندي ؟ !

الخفراء بتحريض من سركيس أفندي ؟ !

أنا بغبائي !!

الفدادين التي جئت أجري من القاهرة لأجمع إيرادها ؟!

الحر .. التراب .. الجفاف .

لقد قيدوا الحادث فى دفتر البوليس ضد مجهول .. ولكنى أرى المتهمين جميعاً .. وأنا أحدهم .. ليس فيهم مجهول واحد ..

ليس لى أن أتحدث عن الغلطة .

إن القتل عمل غليظ فعلا .. ولكن تناول النقود المغمسة بالدم وإنفاقها فى هـــدوء فى بارات القاهرة بين الرقص والضحك .. عمل اشد غلظة ..

وشعرت باليأس .. وبالنفور ..

وشعرت بغلظة هذه التجارة التى تأتينى أرباحها كل عام .

وشعرت أنى شريك فى كل الجرائم التى حدثت فى زمام العنانية .. منذ أن وضعنا يدنا عليه .

* * *

وعند الظهر .. كان سركيس أفندى يتجول بى فى غيط القطن فى مظاهرة من الأولاد الصغار الذين يجمعون القطن ويغنون .. وكان يحاول أن يطلعنى على حسن إدارته وحزمه .. يطارد الأولاد ويشخط فيهم ويجرى خلفهم بعصا قصيرة من الخيزران .. ويضربهم .. وكانت الشمس مشرقة فوق رؤوسنا .. تلسعنا بشواظ من نار ..

وأغمى على أحد الصغار من طول وقوفه فى الشمس وحملوه إلى الترعة ليرشوا على وجهه الماء .. وكانت يده النحيلة مضمومة إلى صدره تقبض على كسرة خبز جافة .

واكتفيت بما رأيت . . ولم أنتظر نزول المساء . . وأخذت قطار العودة إلى القاهرة . . وقد صممت على أن أطلق هذه الأرض إلى الأبد . .

* * *

وكان أول شيء فعلته حينما وصلت القاهرة هو أنى كلمت نانى لأقول لها:

— سوف أترك الأرض نهائيا . . سوف أبيع فدانين وافتح ورشة لإصلاح السيارات أعمل فيها كمهندس . . عملى الوحيد الذى أتقنه .

أنا لا أنتمى للأرض . . ليست لدى الشجاعة لأقتل وأسرق . .

إن رؤية القسوة ترهقنى . . والاستمرار فى هذه الحياة التى اختارها أبى لنفسه مستحيل . . مستحيل . . بالنسبة لى . .

— وحياتك . . والمستوى المادى الذى تعيش فيه . . كيف تترك ثروتك . . ولمن تتركها .

— إنى لا اتركها . . أن الفلاحين يضعون يدهم عليها . . يستأجرونها ولا يدفعون مليما . . ولا أستطيع أن أقاضيهم . . لقد تعبت . . تعبت من المناظر التى رأيتها . .

— أنت طيب أكثر من اللازم . .

لست طيباً . . ولكنى لا استطيع . . لا أستطيع أن أكون شيئاً آخر غير نفسى . . أفضل أن أعيش حياة صغيرة أملكها . . عن أن أعيش حياة كبيره تملكنى . . أريد أن أكون حرا . . أريد أن أقطع صلتى بكل ما يفرض على واجبات لا أحبها . . أنا أكره الواجبات كلها .

— وهل تستطيع الخلاص من واجباتك كلها . . إنى احاول

الخلاص من واجباتى الزوجية منذ سبع سنوات ولا أستطيع . . لا أستطيع سوى أن أجن فقط . الجنون هو الشيء الوحيد الذى وصلت إليه . . وأنا لا أريد لك أن تجن مثلى .. تستطيع أن تتخلص من أرضك . . ولكن ستبقى هناك واجبات على كتفيك لاخلاص منها .

ـــ نانى أرجوك ساعدينى . . لاتسدى أمامى المنافذ . . لا تبنى فى وجهى حائطا غليظاً . . هات يدك لنحفر سويا حفرة فى الجدار نهرب منها إلى عالم نحبه .

ـــ نهرب إلى أين . . أنت تحلم .

ـــ لا توقظينى إذن . . دعينى أحلم . . دعينا نحلم معاً . . نانى أرجوك

ـــ ياحبيبى . .

ـــ نانى . .

ـــ ياحبيبى . .

ـــ أريد أن أستريح . أن أضع رأسى على صدرك وأستريح . . أن أجد نفسى بين ذراعيك . . أن أشعر بلحظة رضى . . أنا ألهث من التعب هاربا من عالم لا أعرفه . . ولا أحبه . . إليك أنت .

ـــ ياحبيبى . .

ـــ تعالى يا نانى . .

وسكتت . . وسمعتها تبكى . .

— ٨ —

كنا وحدنا أنا وهى . .

وكنت أنظر فى عينيها فى شغف . . ولا أشبع . . وأتطلع فى ملامحها الدقيقة . . وتعبيرات وجهها . . وخلجاتها . . وأستشف نفسها . . وأهيم فى وجودها وأندمج فيه فى استمتاع وتلذذ عميق . .

وكانت نظراتنا تتماسك وتتشبث ببعضها . . وتلوذ ببعضها . . وتسعى كفى إلى كفها الصغير لتأخذه وتنضم عليه فى حنان . .

ثم أرفع يدها إلى شفتى أقبلها . . وتنام شفتاى فى باطن يدها . .

وأشعر بها تقبلنى فى خدى . . وأشعر بشفتيها تبحثان عن شفتى وهما ترتجفان . .

وتلتقى شفتانا فى فرحة . . ونغيب عن وعينا . . وعن الدنيا . . ونذوب فى بعض . . فى فيض من النشوة . . منتهى النشوه . .

أحبك . . أحبك جداً . . أحبك طول عمرى . . أحبك إلى أن أموت وبعد أن أموت . . وقبل أن أولد . . أحبك . . أحبك . . وما لزوم الكلام والشعور يخنقنا . . يسكتنا . .

نانى . أنا لا أريد شيئاً سواك أنت . . سوى هذه اللحظة .. تنتظر قليلا لأنعم بها . . أنا لا أريد أن أتيقظ على هذه اللحظة وقــد انتهت أنى أجد فيها سبب وجودى . . لقد خلقت من أجل هذه اللحظة . . خلقت لأكون لك . . نانى . . هذه لحظة تبدأ من عندها أفراحى وآلامى . .

وتلتقى شفتانا فى فرحة . . فى لذة ..

هل أنا أحلم . . قبلينى لأفيق . . بل قبلينى لأحلم أكثر . .

ــ يا مجنون . . يا مجنون .

ــ أنا لست مجنونا . . أنا كأعقل ما أكون طول عمرى .

ــ إذن فأنا المجنونه : . أنا . . أنا . .

ــ أنت حبيبتى .

ــ يا حبيبى يا مجنون . .

ــ فيم تفكرين

ــ أفكر فى أنى ولدت من جديد . . وأنى أعيش معك فى عالم ليس فيه سوانا . . عالم لا ينظر إلينا فى حسد وحقد . . عالم لا يوقظنا من سعادتنا

ــ لا أهمية للعالم ما دمنا معاً .

وأمسكت بى فى خوف وهى تتحسسنى لتتأكد من وجودى بجوارها وهمست

ــ لماذا تتأخر الآمال هكذا دائما . . لماذا تسقط الأمطار بعد أن يموت الزرع من الجفاف .

ــ إن الزرع لم يمت . . إنه ما زال يانعا مخضراً . .

وبكت على كتفي وهي تقول بصوت متهدج :

ـــ يا وهمي الجميل . . يا وهمي الجميل . .

ـــ أنا لست وهمك . أنا حقيقتك .

ـــ أبداً . . أنت وهمي . . أنا لا أستطيع أن أمسك بك . . أنت تفر مني . . لا أجدك بجواري . .

ـــ أنا بجوارك دائماً .

ـــ أنت في وهمي . . في قلبي . . في مهجتي . . و سواد عيني . . ولكنك لست في بيتي . . لست في واقعي . . عرق كفيك ليس في الفراش الذي أنام فيه . . شعرات رأسك ليست على وسادتي . . ثيابك ليست مع ثيابي في سلة الغسيل . . بقايا الخبز الذي تأكله ليست على مائدتي . . قصاصات الورق التي تتخلف منك لا أجدها على أرض غرفتي . . ولدك ليس مني . . وولدي ليس منك . . صوت سعالك الحاد لا أسمعه في في حجراتي الباردة . . أنا أعيش في غربة . . أعيش على وهم وجودك على أمل رؤيتك . . هل تعرف كيف أحبك . . هل تعرف كيف تحب المرأة الرجل . . إنها تحلم أن تكون سكنه وطعامه وشرابه . . تحلم بأن تجمع شتاته على راحتيها . .

ان الرجل يلثم المرأة في شفتيها ثم يمضي في طريقه . . أما المرأة فهي تعيش في تلك القبلة . .

أتعرف لماذا أتيت معك إلى هنا . . لأتزود من وجودك بمؤونة أعيش بها . . لأزود وهمي بثروة من الخيالات يتغذى عليها بقية حياته . . لأتذكرك

أكثر . . وأتعرّف عليك أكثر . . وأخاطبك فى لحظات وحدتى وصمتى ولكنى لن أعود إلى هنا . . لن اعود إلى لقائك أبداً . . لأن هذا ليس حبي . . ليس أنا .. ليس انا :

واخذت تهزنى بشدة . . وهى تكرر كلماتها بصوت متهدج . . هذا ليس حبي . . ليس أنا . . لن اعود إلى هنا أبدا .

ثم انفجرت تبكى بمرارة . .

وصرخت وأنا اضمها إلى صدرى فى حنان :

— سوف نتزوج . . سوف نتزوج . . سوف أطلق زوجتى . . وأتزوجك بعد أن يطلقك زوجك .

ونظرت إلىّ فى فزع هاتفة بين دموعها .

— مستحيل . . مستحيل . . هذا هو المستحيل . . لا استطيع . . أبداً . .

— ولماذا لا تستطعين . . ألا تحبيننى . .

وهمست فى ضراعة . .

— نانى . . نانى .

— أخاف من الله . . ومن رجلى . . ومنك . . ومن عيون أولادك . . ومن عيون أولادى . .

— كل هذا لن يمنعنى . . ولن يمنعك . .

— هناك شىء فوق كل هذا يمنعنى انا . .

— ما هو . .

— نفسى . . أخاف من نفسى . . إن الماضى يتغلغل فى حواسى . .

أنا لم أتزوج زوجى كرهاً ولا غصباً . . لقد . . ارتضيته.. صحيح أنى لم أستطع أن أحبه . . ولكنى عاشرته . . إن الرجال لا يعرفون العشرة كما تعرفها النساء . . لأنهم يعيشون كل وقتهم فى الشارع . . ولكن العشرة تتغلغل فى الحواس . . فى الدم . . فى اللحم .. انى لن أكون خالصة لك .. سوف تعود حياتى كلما دق علينا ولدى الصغير باب غرفة النوم . . وكلما تطلع إلينا بعينيه الواسعتين فى تساؤل . . لن أستطيع أن أسكته حينما يقول .. بابا . .

إنه أفعالى التى تلهث خلفى . .

وسكتت لحظة ثم رفعت وجهها وقالت :

ــ وانت كيف تواجه زوجتك بكلمة الطلاق . . كيف تواتيك القوة لتنظر فى عينيها وانت تلقى عليها اليمين . . وحينما يمسك الطفل بذيلك وأنت خارج . . كيف ستجد القوة لتنفض يده الصغيرة عن ثوبك . . إنه أفعالك التى فعلتها . . كيف تنكرها . .

ــ لقد حدث كل هذا خلسة دون أن أدرى .

ــ ولكنه حدث . .

ــ سوف اتحدى الدنيا كلها لأحصل عليك . .

ــ سوف تتحدى الدنيا كلها . . ولكنك لن تستطيع أن تتحدى نفسك . . لن تستطيع أن تتحدى أفعالك . . إن أفعالك هى ذراعاك .

ــ سوف أقطع ذراعى لأصل إليك.

ــ لا أحب أن أراك مقطوع الذراعين . . لقد أحببتك فى كمالك

وعذابك وضعفك . . ولم أحبك وأنت تقسو وتقتل وتقطع زحمك وأوصالك .. سوف تصبح رجلا آخر . . وسوف أصبح إمرأة أخرى ولن يتعرف كل منا على صاحبه . . سوف نكون شريرين ينتقم كل منا من الآخر . .

ــ سوف أحبك إلى الأبد مهما حدث . .

ــ أما أنا فأعلم جيداً ماذا سوف أفعل إذا تزوجتك .

ــ ماذا ستفعلين ؟

ــ سوف أنتقم منك .

ــ انت مجنونة . . انت مجنونة .

ــ أنا لا أستطيع أن أخون نفسي . . إني أحبك بنفسي . . وأتقرب إليك بروحي وأعشقك من خلال روحي . . ولو خنت روحي فسوف أخونك وأخون الدنيا . .

ــ أنت لا تحبينني . . أنت تكرهينني

وبهتت لهذه الكلمة تخرج من شفتي ونظرت إلى صامتة وبكت . .

وأمسكت بها من كتفيها . ورحت أقبلها في كل مكان من صدرها واهتف . .

ــ لن يكون في الدنيا حب إذا لم نتزوج . .

ــ ليس في الدنيا حب .

ــ لاتقولى هذا يا نانى . .

ــ ان الحب في قلوبنا وليس في الدنيا . . إنه في وهمنا فقط . . إن

الدنيا لا تحتمله .. ولا تستطيع أن تحققه .

ــ لا تقولى هذا الكلام . . إنى أختنق حينما اسمعك ترددين هذا الكلام . .

ــ ان الواقع هو الذى يخنقنا جميعا . . ان الحب فى قلوبنا عميق . . عميق ..ولكن الحب فى الواقع يختنق بالشهوة والغيرة والانانية . والمصلحة والعادة والملل والضجر وأنا لا أريد أن أخنق حبي لك بالوقع.. أريد أن أحتفظ به فى وهمى وأغذى به خيالى . .

ــ سوف تكونين سكنى وبيتى وحياتى . .

ــ لقد فات الأوان . . لقد سقطت الأمطار بعد أن جف الزرع لا تعذب نفسك وتعذبنى معك . . ولا تثرثر كثيراً كالأطفال الصغار . . أنظر إلىّ . . احتضنى بذراعيك..دعنى ألمسك هكذا . . دعنى أتملى بالنظر إليك . . دعنى أتزود بمؤونة أعيش عليها العمر كله .

وأخذت تنظر إلىّ فى هيام . . وكان فى عينيها فزع .

كانت فى عينيها نظرات امرأه تودع شيئاً لن تراه . .

وأصابتنى عدوى الفزع الذى يطل من عينيها . . وأمسكت بها أهزها .

ــ إننا سوف نلتقى مرة أخرى . . سوف نلتقى كل يوم . . كل لحظة . . أليس كذلك .

وأجابت فى نبرة جامدة ثابتة وهى تنظر فى وجهى .

ــ إننا لن نلتقى . .

ـــ مستحيل . . مستحيل .

ـــ أنا لا أحب هذا اللقاء المسروق . . إنه ليس حبي ليس أنا . . ليس أنا . .

ـــ سوف نتزوج . . ونحقق الحب الكبير الذى تحلمين به .

ـــ إن حبي يتحقق فى قلبي وحده . . فى وهمى . . إن كل الأمكنة تضيق به . . وكل الحلول تضيق به . . إنه المستحيل الذى أحتضنه فى ضلوعي . . وقد ضاقت الدنيا به على رحابتها . .

وانهارت تبكى . . وكل جسمها يرتجف . .

ونظرت إلىّ من خلال دموعها وغمغمت . .

ـــ لماذا أعذبك . . لماذا تركتنى أعذبك هكذا . . لماذا لا تقتلنى

ـــ نانى . . كفى هذيانا . .

ـــ لماذا لا تقتلنى . .

ونظرت إلىّ . . نظرت إلىّ فى شوق طفلة . . وهى تتعشقنى بنظراتها

ـــ هل عندك حل ؟

ـــ الحل هو أن أتزوجك .

وضحكت ضحكة هستيرية وغمغمت .

ـــ أيها العجوز . إنك لا تصلح زوجاً لى . . إنى أرفض أن أتزوجك

وقبلتنى فى جبينى وهى تقول .

ـــ أريد أن أحفظ هذه الخطوط الرفيعة التى فى جبينك خطاً خطاً

حتى أتذكرها كلها وأنا وحدى . . وأستحضر صورتك فى خيالى . . وأراك أمامى هكذا . . وأنا جالسة وحدى فى البيت أرتجف من البرد .

— نانى . . لماذا جئت معى إلى هنا . . لماذا تقولين هذا الكلام . .

ونظرت إلى . . ولم تتكلم . . وضحكت ضحكة غريبة يمازجها البكاء .

— لماذا فعلنا كل ما فعلناه . . لماذا تمسكين بيدى هكذا . . كأنك تعتصرينها . .

— أريد أن أتخلل يديك لأصل إلى روحك . . أريد أن أستولى على روحك . . أريد أن آخذ روحك . .

وضحكت فى حزن :

— أنت تعذبينى . .

— الدنيا هى التى تعذبنا . . الدنيا هى التى خدعتنا . . الدنيا أدخلتنا فى غرفة مظلمة لنختار ملابسنا . . فلم نستطيع أن نتعرف على ثيابنا فى الظلام . . وخرجنا كل واحد يلبس لبسا غير لبسه . . ثم تمزقت ملابسنا من ضيقها . . وبليت هدومنا الحقيقية من طول وضعها على الرف . . وفى النهاية لم تبق لنا ثياب نستر بها أنفسنا .

— سوف نفصل لأنفسنا ثيابا جديدة .

— سوف نفصلها من الخرق القديمة . . ولن تسترنا إلا لحظات ثم تتمزق ثانية . .

— نانى . . لماذا تتكلمين بكل هذا اليأس ؟

— لأنى لا أجد حلا . .

— ولكنك تجدينى إلى جوارك . . أليس كذلك . .

ونظرت إلىّ فى ارتياب وأخذت تتحسسنى لتتأكد من أنى موجود فعلا

— نعم . . هذا أنت كلك حولى . . كلك حولى . .

وامتلأت عيناها دموعا .

ودقت ساعة الحائط عشر دقات . . فرفعنا رأسينا فى وقت واحد فى فزع . .

— الساعة بلغت العاشرة . . لقد سرقنا الوقت . . يجب أن أعود حالا .

وكانت الدقة الأخيرة مازالت تدوى فى أذنى . . وكان صوتها كئيبا .

ووقفت تسوى ثيابها وتصفف شعرها أمام المرآة .. وكانت تعطينى ظهرها ..

وكان قلبى يهبط . . ويهبط فى ضلوعى . . حتى يصل إلى قدمى . .

وأسرعت إليها أحتضنها .

— لا تنزلى الآن . .

— كيف ؟

— إبقى لحظة . . أريد أن أكلمك قليلا . .

— ماذا تريد ؟

— أريد . .

وتلعثمت . . ولم أعرف ماذا كنت أريد

كنت أريد أن أقول أى كلام لأحتفظ بها أطول وقت أمامى . .

أتطلع إليها . . وأشم عطرها . . وأرى شفتيها وهما تتفرجان . . وأرى عينيها . . وهما تمتلئان بالشوق . .

كنت أريد أن أسمع صوتها . . وهى تجاوبنى بأى كلام . . وقلت لها فى أسى :

— نانى . . لا أريد أن أحس أنى سوف أفقدك . . إن هذا الإحساس يقتلنى . . يقتلنى . .

— إنك لن تفقدنى . . سأعيش لك دائماً .

— هل هذا صحيح ؟

— لا يوجد شىء صحيح فى حياتى غيرك أنت . .

— ولكنك ذاهبة الآن . . أليس كذلك ؟

— أينما ذهبت فسوف تكون معى . . فى كل بيت أدخله . . وفى كل كتاب أفتحه . . وفى كل نغمة أعزفها .

— لا أريد . . لا أريد هذا اللقاء . . أنا أريدك أنت لحما ودماً . .

ونظرت إلىّ فى إشفاق . . ولم تتكلم . .

وخلف العينين المشفقتين . . كانت تطل الحيرة . . حيرة لا حد لها .

كانت تسألنى بعينيها . . ماذا أستطيع أن أفعل ياحبيبى . . أنا أحبك وأريدك . . وأتمناك . . ولكن ماذا أفعل . كانت تتشبث بى فأتقطع فى يديها . . ولا تجدنى ولا أجدها . . وكلانا ممسك بالآخر .

كنت أقرأ كل هذا فى عينيها . . وأنا أنظر فيهما . . ويداى مطبقتان على يديها . .

ولم أجد شيئاً أقوله . .

وصحبتها فى عربتى . .

ولبثت صامتاً طول الطريق . .

كنا سجينين نحن الإثنين . . سجينى عاطفة لا تستطيع الخروج فى النور . . عاطفة تلوذ بالظلام . . عاطفة تعاقبنا على السعادة التى نسرقها بالسجن . . والحياة فى الخفاء فى فزع .

وكنت أتساءل . . لماذا نعاقب فى جهنم . والعذاب يتعقبنا على الأرض

الجزاء يلحق بنا لحظة بلحظة . . قبل أن نلتقط أنفاسنا .

وكنت أشعر بالضيق . . وبالحزن . . وبأنى مظلوم . . وأحسد الفضلاء على السكينة التى يعيشون فيها . .

كنت أتعذب . .

ولم أجد ما أبثه سخطى سوى العربة الحديد التى أركبها . . فضغطت بقدمى على البنزين وانطلقت أطير فى سرعة خطرة . . وكان الإحساس بالخطر يريح أعصابى . . ويسكت الضجة التى فى دماغى . .

وكانت نانى تتشبث بذراعى فى خوف . .

ــ ماذا دهاك . . لماذا تسرع هكذا . . هل تريد أن تنتحر . . هل تريد أن تموت .

هل أريد أن اموت . ربما . .

ــ هل تحبين الحياة . .

— نعم احبها . . لأنك فيها .

— هل تجزعين من الموت إذا متنا معاً . .

— لماذا تقول هذا الكلام . أنت تفزعني . .

ونظرت إلى بعينين واسعتين يغمرهما الحنان . .

وارتاحت نفسي وأنا أنظر إليها .

وكنا قد اقتربنا من البيت . . فهدأت من السرعة . . وتوقفت . .

وكانت هناك عربة أخرى قادمة من الأمام . . وأضاءتنا بكشافاتها . .

وهمست نانى فى ذعر . . أنه عزيز زوجى . .

ونزل عزيز من العربة . . ووقف ينتظرنا .. وكانت تبدو عليه الدهشة :

— ٩ —

لم أبرح البيت طوال ثلاثة أيام .

عصفت بي حمى ألزمتني الفراش . . ولبثت أهذي . . وأتلوى من آلام حادة في عظامي . . وأتقلب في طوفان من اللهب . . ثم بدأت أفيق

وسكنت روحي مثل شراع ألقت به الريح على شاطىء مهجور . . وفتحت عيني لأجد زوجتي واقفة عند رأسي . . وفي يدها كوب من الليمون . . وعيناها واسعتان . . مثل بحر من العسل مليء بالحنان . .

وأراحت رأسي على كفها لتسقيني

ونظرت إلى عينيها . . وخارت قواي . .

ورنت في أذني كلمات ناني :

كيف تواجه زوجتك بكلمة الطلاق . . كيف تواتيك القوة لتنظر

فى عينيها وأنت تلقى عليها اليمين . . كيف تجد القوة لتنزع ولدك الصغير من ثوبك وهو يتشبث بك عند الباب . . إنه فعلتك التى فعلتها . .

إنك تستطيع أن تخون الدنيا كلها . . ولكنك لا تستطيع أن تخون نفسك . . لا تستطيع أن تنكر فعلتك . .

إنك حينما تخون نفسك تخوننى . . فأنت تحبنى بهذه النفس . . وتعشقنى من خلالها . . مستحيل .

ونظرت إلى زوجتى . . ورأيت المستحيل . .

رأيت المستحيل فى البحر الساذج الحنون فى عينيها . . وسمعت صوته فى بكاء ولدى . . وهو يناديني . .

وتذكرت كلمات نانى . . وأنا أقول لها . . سأتزوجك . . سأحقق الحب الكبير الذى تحلمين به . . وهى تجاوبنى فى ضعف .

— إن حبى يتحقق فى قلبى وحده . . فى وهمى . . إن كل الأمكنة تضيق به . . وكل الحلول تضيق به . . إنه المستحيل الذى أحتضنه فى ضلوعى . .

كنت أشعر بهذا المستحيل فى تلك اللحظة . .

كنت أشعر بإرادتى تتكسر على عينى زوجتى وهى تنظر إلى . . ورغباتى تذوب أمام عربدة ولدى الصغير وهو يضع يده فى كمى . .

ماذا أفعل أمام البراءة . .

كيف أنظر إلى البراءة فى عينيها وأصفعها . .

لا يوجد حل سوى أن أطوى ضلوعى على المستحيل . . وأعيش به



وحدى فى الظلمة . . أسجنه معى . . ويسجننى معه . .

يئست تماماً . .

وكانت زوجتى تحدثنى فى نبرة أسى :

— هل سمعت الصراخ أمس ؟

— أى صراخ . .

— لقد كنت محموما . .

— ماذا حدث ؟

— لقد تشاجر عزيز مع زوجته وضربها وكسر ذراعها .

وسقطت الكوب من يدى . . وغامت عيناى . . وأظلمت الدنيا أمامى فترة . .

وأفقت لأجد زوجتى تدلك خدى . . وتربت على شعرى . . ولم تفطن إلى سبب ألمى . . لأنها عادت تقول فى حزن :

— مسكينه نانى . . إن زوجها رجل متوحش .

ومسكين أنا أيضاً . . ياليتها تعلم كم أنا مسكين . .

* * *

وفى الظهر تلقيت هذا الخطاب من نانى :

أكتب لك بيدى اليمنى . ويدى اليسرى فى الجبس . . شكراً لله . . إنه أبقى لى يداً سليمه أكتب لك بها .

لقدضربنى زوجى وكسر ذراعى . .مسكين أنا لا ألومه . . ولكننى ألوم نفسى . . فقد كنت قاسية فى معاملته . .

أرهقنى بشكوكه وأسئلته وسبابه وفظاظته وغلظته . . حتى جن جنونى

وتطاولت عليه . . ففقد صوابه وهجم عليّ كالوحش . . وأخذ يضربني حتى كسر ذراعي . .

ليته أتى على البقية الباقية مني . . لأستريحت . . ليته أسكت قلبي الذي يهتف باسمك . .

إن وجودي يرهقني . .

إن عواطفي تصرخ . . وأنا عاجزة عن ضبطها . . عاجزة عن إطلاقها . . أسير في الحياة كدمية مشطورة نصفين . . تائهة مترددة . . نصف ثائرة نصف مستسلمة . . أقوم بأفعال لا أقتنع بها . . وأقتنع بمبادىء . . لا أعمل بها . . ضائعة . . ضائعة تماماً . . أملي الوحيد مستحيل . .

لقد ظللت أفكر بعد أن افترقنا . . كيف أوتيت الجرأة لأفعل كل هذا . . كيف خرجت من بيتي لأقابلك

كيف جرؤت . .

ولكني الآن أعرف كيف حدث هذا . .

إن العذاب الذي أعيش فيه أفقدني القدرة على التمييز . . كنت كالمحكوم عليه بالإعدام الذي أباحت له المحكمة أن يطلب طلبا قبل أن يموت .

لقد أهدرت الظروف السيئة حياتي . . واستباحت دمي . . وطاردتني حتى سلم المقصلة . .

ماذا هناك أكثر من أن تقطع رأسي . . لا شيء . .

وطلبت أن أراك . .

طلبتك قبل أن أموت .

طلبتك وأنا أختنق فى غرفة الغاز .

وأحسست لفترة وجيزة أن أى شىء من حق . . أى شىء . . حتى أنت . .

آه . . يا الهى . .

إنى استطيع أن أخاطبك أنت وحدك . . ولكنى لا أستطيع أن أخاطب الناس . .

أنت وحدك الذى تفهمنى لأنك مطلع على داخلى . . لا أحد يفهمنى سواك . .

أنا ساقطة فى نظر الناس . .

ولكنى أعيش فى جهنم . .

جهنم . . هى حياتى . .

لقد دفعت ثمن خطيئتى فى الدنيا . . ونفذت العدالة أمرها فى مصيرى انتهى أمرى . .

لقد عوقبت وأعاقب كل يوم وكل لحظة . . بل أنا العقاب نفسه . .

إن الخطيئة شقائى وليست لذتى .

إنى أحسد الفضلاء . .

إن الفضيلة أمان وسكينه وحرية وسعادة . .

إنها الجنة . .

إنها مكافأة جميله .

أنا أعجب للفضلاء الذين ينتظرون أن يكافأوا على فضيلتهم بالجنة ـ أى جنة . . وهم فى الجنة فعلا .

* * *

يا حبيبى . .

أجمل شىء فى هذه اللحظة أنى وحدى . . لا شىء معى سوى خيالك اتمثلك امامى بقامتك الطويلة . . ووجهك الأسمر الرقيق . . وعينيك الحائرتين وهما تتدفقان حنانا وطيبة . . واسمع صوتك الأجش . . ونبراتك الرحيمة . . وأعيش فى انسجام مع روحك . . أتملى برؤية نفسى فى مرآتك . . فى كلامك . . وخطواتك . . ولفتاتك . . وضحكاتك

الساعة التى قضيتها معك . . تزودنى بزاد من الموسيقى لا ينفذ . . يملأ وحدتى بالأنغام . . ويكشف لى جمالا خفيا وراء كل شىء . . أتنسمه بحواسى فى لذة .

فكرت كثيراً لماذا أحبك كل هذا الحب .

لم اعرف . .

ربما لأنك حريتى . .

ربما لأنك إرادتى التى فرحت بها لأول مرة وأنا أقتحم بها الظروف وأحطم كل ما حولى من خير ومن شر لأصل اليك . .

ربما لأنك انا . . وقد ظفرت بك . . وبنفسى فى ذات الوقت . .

ولو أننى قد اخترت زوجى بكامل حريتى . . لما أحببتك . . ولما عرفتك . .

أنانيـــة . .

ولكن لا . .

إنها ليست أنانية إلى النهاية .

هناك سر آخر . .

سر فى الدنيا . . كشفت لى عنه فأصبحت أحبها . . وأشعر بجمالها وأهتز لنسماتها . . واتلذذ بالحياة فيها . .

سحر خفى فى الوجود دلنى عليه حبك . .

ما أكثر ما يستطيع الحب أن يفعله .

إنى أتذكر حال زوجى منذ سنوات حينما كان يحب أختى . . كيف كان يضىء بشفافية حلوة . . وكانت أساريره تضحك فى طلاقة . . وحركاته تنساب فى خفة ومرح . .

وأتأمله الآن . . وهو ثقيل معتم جامد غليظ . . يتحرك فى لزوجة وبطء . . الكراهية تشيع فى جسمه كما تشيع الرطوبة فى المفاصل . . كيف أشعر أحيانا وهو ينظر إلىّ . . أنه سوف يقتلنى . . كيف أحاول المستحيل لأفهمه دون أن أستطيع وكأنه من مادة أخرى لا أستطيع الامتزاج بها . . مادة ثقيلة ترسب فى نفسى ولا تذوب . .

كيف نتعاشر منذ سنوات . . ونحن منفصلان . . نتلامس بالجسم فقط . . يجمعنا الإشفاق أحيانا . . فأتصدق عليه . . وأنا اتأفف . . كأنى أتجرع دواء مراً . . ثم أعود فأثور عليه وأتلذذ بحرمانه وتعذيبه .

والآن . . الآن وأنا احبك . . كيف أشعر أحياناً . . إنى أحب كل

ما فى الدنيا . . وأنى أحبه . . حتى هو أيضاً . . وازداد قرباً منه ومن أولادى . . وبيتى . . وأشعر بالصلة الوثيقة التى تربطنا كلنا . .

حبك رد لى قدرتى على ان أحب . . وأعطى . . ومنحنى القـــوة لأغتفر . . واتحمل . .

ان الكراهية شىء فظيع يوقف الدم فى القلب . .

وقد عشت طول عمرى احارب الكراهية بدون سلاح . . احاربها وانا اكره أن احاربها . . وأكره نفسى . كنت تعيسه . . تعيسة جداً اتعس من أن ادافع عن حياتى .

ولكنى الآن احارب الدنيا . . بك

* * *

فكرت فيك وانا انام . .

واكتفيت وأنا أغمض عينى بأن أفكر فيك وأعيش فى معنى وجودك . .

ولم يخطر ببالى أن أذهب اليك بجسمى . . واحاول ان اقابلك . .

كان شعورى نحوك . . وشعورى نحو نفسى . . اكبر من ذلك الأجر الزهيد الذى تعدنى به هذه المقابلة . .

كان ملتقانا فى الخيال . . أرحب بكثير من الغرفة التى التقينا بها فى الواقع . . وكانت مسرتى بك أعمق .

لا . . ليست الفضيلة . . كما تبادر إلى ذهنك . . هى التى منعتنى من ان اسعى اليك . . فأنا لست امراة فاضلة . . وإنما حبى هو الذى منعنى .

أحساسى بأن أى لذة أفوز بها معك بالجسد لن تطفىء عطشى . . ولن تساوى عطشى . . وكل ما ستفعله . .انها سوف توسع هوة المستحيل التى نقف نحن الإثنان علىحافتها. وتزيد حسرتنا . . ويأسنا . . وعذابنا . .

وطمعى فى ان افوز بك كاملا هو الذى قعد بى فى مكانى لا ابرحه ولا احاول ان اسعى إليك لألقاك . . ولا أرغب فى هــذا القسط الزهيد من اللذة . .

لم أكن فاضلة . .

كنت أريد اللذة كلها . . ولم يكن يشبعنى قسط منهـا . . لم تكن تشبعنى رشفة من حافة كأسك . . او لمسة من وجودك . . ولهذا آثرت أن أعيش فى معنى وجودك.. مع صورتك وفكرتك . .

شكراً لك . .

ان حبى لك يحمينى منك ويحمينى لك . .

ويحميك أنت أيضاً لى . . كأجمل ما تكون مع زوجتك وولدك . .

. إن الحب شعور طيب مهما كانت صورته . . ولا يمكن للواقع ان يساومه . .لأن الواقع أضيق منه وارخص . . ولو انى اصبحت زوجتك فلن يجد حبى لك كفايته . . وسوف يختنق فى التعامل اليومى المبتذل مع الطباخ والبواب والبقال .

إن الحياة قاسية . . قاسية . .

الحياه تدوسنا . . وتدوس مشاعرنا . . وتدوس احلامنا . . كل شى يتحقق فيها تسقط قيمته . . حتى المادة نفسها . . حتى النقود . . تظل

حلماً جميلا حتى نكسبها وننفقها فتسقط قيمتها وتصبح شيئاً عاديا نرميه . ونتخلص منه بالقمار . .

أنا أكره الواقع . .

وأحبك أنت أكثر من الواقع . .

وأكثر من الحياة . .

واحب حبك أكثر منك . . وأكثر من نفسي . . وأصعد به إلى سماوات أجمل من نفسي ومن الدنيا . . سماوات مضيئة فى داخلى . . تمنحنى السعادة . . والسلوى . . والعزاء . .

يا حبيبى يا أجمل ما فى دنياى . . أنا أحبك الحب كله . . فلا تحبنى الحب الصغير الذى لا يذكرنى إلا حينما يجوع الجسد وتجوع العينان وتجوع اليدان .

أحبنى الحب الكبير . . الذى ليس له حل . . وليس فيه شبع . . وليست له وسائل ولا أوقات . .

الحب المستمر مثل الوجود . . الحاضر فى القلب مثل الخفقان . . المتصل كالأنفاس . . فى النوم واليقظة .

لا تحاول أن تسعى إلى لقاء مسروق لتشبع جسدك وعينيك منى

إن هذا أجر زهيد لا أقبله . . لكل هذا الحب الذى أحبه لك .

سوف أحزن كثيراً . . إذا حدث هذا . . سوف أتعذب .

سوف تعذبنى وحدتى من جديد . . وحدتى فى حب لم يجد صداه . .

يا حبيبى يا أملى . . لا تخذلنى . .

دمت لى .. ولولدك .. ولزوجتك .. وسعدت فى كل أوقاتك .

« نـانى »

قرأت الخطاب مرة .. ومرتين .. وثلاثاً .. وأربعاً .. ولا أدرى كم مرة بعد هذا كنت اقرأه .. ثم أضعه إلى جوارى ثم أعود فأقرأه .

وكأنى اجرى وألهث . فى طريق ليس له آخر .. اسمع صوتها يرن حولى .. ولا أجدها .. مثل الروح تملأنى ولا أراها ..

مثل روحى أنا ..

قريبة .. ومستحيلة .

* * *



١٠

منذ شهر وأنا أعمل فى ورشة السيارات التى فتحتها . . كل يوم من الصباح إلى المساء .

أشعر بلذة من الإنهماك فى عملى . . وأشعر بسعادة لأنه عملى . . أوظف فيه خبرتى وذكائى ومجهودى دون وساطة أحد . . أنا والآلة نقف وجهاً لوجه . . أفكها . . واضبطها . . وأحكمها . . وقد تطورت العلاقة بيننا إلى صداقة فأنا أصادقها كأنها آدمى له قلب وأحشاء ولحم ودم .

تمنيت اليوم وأنا راكع تحت إحدى العربات لو أنى استطعت أن أفك نفسى وأعيد تركيبها . .

• تمنيت لو أنها طاوعتنى . .

إن الحديد يطاوعنى ولكن قلبى لا يطاوعنى . .

أنا أبث عقلى فى الآلة فتتحرك .. وتنتظم .. ولكنى عاجز عن أن أبث عقلى فى عاطفتى .

أشواقى تحرقنى .. صوتها يرن فى أذنى على الدوام .. روحها تحكمنى وتسلبنى الإرادة ..

ألتمس الهدوء لنفسى فلا أجده .. كيف أنساها .. كيف أروض نفسى على الحياة بجوارها دون أن أطلبها .. كيف أطفىء ضرام الرغبة .. ولهب الحنين .. وعقلى .. حتى عقلى يشتهيها ..

أنها تجد الحصانة منى فى حبها لى .. فمالى أنا لا أجد حصانة منها فى حبى ..

حاولت أن أحمل نفسى على هـذه القداسة التى أستغنى بها عن لذات الحواس .. ولكنى لم أستطيع .. غلبتنى بشريتى ..

احتقرت نفسى ..

كنت أذهب أكثر من مرة إلى التليفون .. ثم أعود أقف أمامه فى خوف وتردد .. أمد يدى ثم أردها .

وأحياناً كنت أرفع السماعة وأدير القرص على رقم أو إثنين ثم لا أجد الشجاعة لأستمر فأضع السماعة من جديد .. وكنت أجد فى إدارة الأرقام لذة لمجرد أنها تنتمى إليها .. وكان إسمها على لسان زوجتى يحركنى .. كأنه كائن حى ..

وكانت الموسيقى تعذبنى .. تذكرنى بها .. بتقاطيعها .. بعودها النحيل .. ومشيتها المنسجمة .

فكرت كثيراً فى خطابها الآخير . . وفى كلماتها . .

كيف صعدت إلى هذا الصفاء المعنوى .

ما الذى شدها إلى فوق .

العذاب !! . .

المستحيل ؟ !!

حاولت الخلاص مثلها فلم أستطع . . كان الواقع يشدنى . . ودنيا الحواس تجذبنى . . وتبدوا لى أكثر إقناعا . . .

كانت بيننا مسافه إنسانية . . هى العذاب الذى تعذبته . .

★ ★ ★

سافرت إلى الإسكندريه لأغرق همومى فى صخب المصيف . ولكن الأمر لم يتغير كثيراً .

كان الصخب يطفو على سطح وجودى . . والحوادث تجرى حولى كأنها على شاشة . . معزولة عن نفسى .. لا أتعاطف معها إلا مجاملة...دون أن أمتزج بشىء فيها بالقلب .

قابلت الأستاذة فاطمة المحامية . . وكانت تمشى وحدها بإعياء . . نحيلة شاحبة تحت عينيها غضون سود . .

لم أعرفها فى البداية حتى سلمت على . . فأخذت أدور بعينى فى جسمها باحثاً عن الاستدارة الجميلة التى كنت أراها مرسومة تحت الفستان . . والصدر الرجراج الشهى الذى كان يكظ من فتحة ثوبها . .

كانت تبدو كجذع نخلة سقطت ثمارها . .

طلبت منى أن أوصلها للفندق لأنها متعبة . . والمغص عاودها .

ذهبت معها إلى غرفتها . . وطلبت الطبيب . .

تذكرت الليالى التى قضيناها سويا . . وأنا أستمع إلى صوتها المبال تذكرتها كأنما أتذكر سرابا . .

ــ كيف حالك ياحلمى . . يخيل إلىّ أن سنوات مضت دون أن أراك .

ــ نعم . . سنوات . .

ــ تبدو مهموما . . ليست هذه عادتك . .

ــ هموم الحياة . .

ولم أشأ أن أخبرها بشىء من هموم الحياة . . ولكنها قالت فى فضول .

ــ لم أكن أعتقد أن الهموم تستطيع أن تنالك . . كنت تبدو لى دائماً رجلا قويا . .

ــ إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش إلى الأبد قويا . . أليس كذلك

ــ ماذا تعنى . .

ــ أنت لا يبدو الآن أنك قوية كما كنت زمان . .

ــ أنا . .

واكتست عيناها بالحزن وأردفت فى نبرة كسيرة . .

ــ أنا لم أكن أبدا قويه .. أنا كنت دائماً أقتل نفسى . . طول عمرى وأنا أقتل نفسى . . لم أجد أحدا ينقذنى . .

ــ لقد قتلت كل من حاولوا إنقاذك يافاطمة . . أنت تعلمين جيداً

كيف كانت حياتك . .

ــ نعم أعلم . .

وسكتت ثم أردفت فى يأس .

ــ لا فائدة . . لم يعد هناك فائدة . .

ــ لاداعى لكل هذا اليأس . . إن الإنسان يستطيع أن يبدأ من جديد .

ــ أتظن هذا ..

ــ أكيد . .

وفى الحق لم أكن متأكد . .

ــ أشكرك على هذا التشجيع

وأردفت بعد لحظة .

ــ ماذا كنت تقول حينما كنت تتذكرنى يا حلمى .. إمرأة سيئة .. أليس كذلك . . لا تجاملنى أرجوك . . قل الحقيقة . . إنهم جميعاً كانوا يقولون عنى إمرأة سيئة . .

ولم أقل لها أنى لم أتذكرها إلا اليوم . . وإنما قلت مجاملا .

ــ كنت أتذكر اللحظات الجميلة التى عشناها معاً . .

ــ شكراً .. يالك من ولد رقيق جميل . . كم كنت أحبك . .

وقلت لها باهتمام .

ــ قولى الحقيقة يافاطمة . هل كنت تحبينى .. لقد فات أوان الكذب

وأجابت فى ملل :

ــ ياولدى الصغير : أنا لم أحب أحدا . . ولم يحبنى أحد . . لا

يوجد رجل فى الدنيا أهل للحب . . أنت تحلم بأشياء لا وجود لها . .

ـ ألا تشعرين بالشقاء وأنت تقولين هذا الكلام . .

ـ دعك من التفلسف . . وقل لى . . هل أحببت أنت . .

ـ نعم أحببت . .

ـ ومن هى تلك الساذجة التى خدعتها يا ترى ؟ . .

ـ أنا لم أخدع أحداً .

ـ إذن فقد خدعت نفسك .

ـ وما الذى يدعونى لأن أخدع نفسى .

ـ لتخلق قصة وهمية تجمل بها حياتك . . أليس هذا هو الحب .

ـ أن الحب هو الذى خلقنى . . ولست أنا الذى خلقته . . أنا لا أستطيع أن أخلق حباً . .

ـ هذه أشعار . . إن الواقع غير هذا . .

ـ وما هو الواقع عندك .

ـ الحب فى الواقع هو العذر الذى نلجأ إليه لنقضى وقتاً طيبا فى الفراش . . أنه الكلمات المشهية التى نقولها لبعض لنقبل على الأكل بنفس مفتوحه ونصنع لأنفسنا جواً من الحماس ننسى به الوقت . .

ـ لسنا فى حاجة لأعذار لنجتمع فى الفراش . . أن الغريزة تعتذر بالنيابة عنا . . وهى تتكفل بخلق الحماس اللازم وأكثر . .

ـ لا مانع من أن نطلب مزيداً من البركة . .

ـ إن لقاء الفراش قد يتم على أحسن وجه ولا يحدث الحب . . وقد لا يتم

بالمرة . . ويقوم الحب بدونه .

— هذا كلام فارغ .

وشعرت أن كلامى يضايقها . . فسكت . . ودخل الطبيب . . وفحصها . . وكما حدث فى المرة السابقة . . وقف يمصمص شفته فى استغراب . . ويقول أنه لم يجد شيئا ذا بال . . ربما كان احتقانا أو بردا فى المعدة . . أو أى شىء تافه لايدعوا للقلق . . ولكنها كانت تتلوى من الألم وتطلب حقنة مسكنة .

وفتح حقيبته وأعطاها الحقنة . . واستعادت روحها . . ومرحها . وقالت مداعبة :

— والآن احك لى عن حبك ياصغيرى . . فقد مضى على وقت لم أسمع نكتة ظريفة .

— إن حبى ليس نكتة . .

— حسنا أخرج منديلك لتكفكف به الدموع . . واحكى لى عن تراجيديا غرامك .

— ألا تستطيعين أن تتكلمى عن شىء دون أن تسخرى منه . . ألا تتصورين أنه من الممكن أن توجد حقيقة . . ولو على سبيل الصدفة .

— أى حقيقة . . إن الدنيا كلها كذب فى كذب . . إنها نكتة . . إنها سخف لا يحتمل .

— ومع هذا فيبدو أنك حريصة على التمتع بهذا السخف والاستزادة منه بكل طريقة ممكنة . .

ـــ وهذا سخف آخر منى لم أستطع أن أقاومه . .

ـــ ألم يخطر بذهنك أن السخف قد لا يكون فى الدنيا . . وإنما قد يكون فى طريقة حياتك لهذه الدنيا . .

ـــ هذا وعظ مسيحى جميل . . يبدو أن صاحبتك راهبة فى الفرنسسكان.

ـــ أنت أسوأ دعاية لآرائك فمن الواضح انك لم تستطيعى أن تبلغنى بهذه الآراء أى راحة أو سعادة وهذا أنت بعد ثلاثين سنة . . وحيدة لا رجل . . ولا زوج . . ولا ولد . . ولا بيت . . ولا حتى صديق . . وحيدة مريضة فى فندق مهجور وفى بلد لا تعرفين فيها أحدا . . هل هناك فشل أكثر من هذا لك ولآرائك . . هل يمكن أن يعاقب إنسان على آثامة بأكثر من هذا . .

ويبدو أن كلامى كان قاسياً لأنها سكتت . . وشحب وجهها . . وظهر عليها الحقد والمرارة واليأس . . .

وظلت تصارع ضعفها لحظة ثم انهارت فجأة . . تبكى . . . وتشد شعرها . .

ـــ خلنى . . حرام . . عليك . . لا تقتلنى . . لا تقتلنى . .

أنا مسكينة . . مسكينة . . أنا فى حاجة إلى العطف والحنان . .

ـــ لن تجدى العطف والحنان إلا إذا أعطيت العطف والحنان .

ـــ أنا غير قادرة على أن أعطى أحداً شيئاً . . أنا لا أملك عطفاً . . ولا أملك حنانا . . أنا مسكينة . . مسكينة . .

وظلت تردد كلمة . . مسكينة . . مسكينة . . مدة طويلة حتى استراحت.

وهدأت فمسحت دموعها ثم قالت فى صوت ضعيف هامس .

ـــ حلمى أنت لا تعرف عنى شيئاً . .

ـــ أنا أعرف ما يكيفنى . .

ـــ أبداً . .

وسكتت لحظة . . ثم عادت تبكى فى سكون . . وقالت فى وجل وتردد . .

ـــ سوف أقول لك حقيقة لا تعلمها . . هل تعرف سر هذه النوبات من المغص التى تنتابنى . .

وسكتت . . وترددت ثم قالت بصوت مضطرب . .

ـــ أنى أتحايل بها لأحصل على حقن المورفين . . أنا أدمن المورفين من زمن طويل . .

وكانت هذه الحقيقة مفاجأة بالنسبة لى تماما . .

واحسست بالإشفاق الشديد نحوها . .

ـــ يجب أن تدخلى مستشفى لتعالجى نفسك من هذا الإدمان المدمر.

ـــ لا فائدة .. سوف أعالج الإدمان . ولكن كيف أعالج حياتى . . كيف أحتملها بدون أن أتجرع السم كل يوم . . كيف أعيش بلا حب بلا هدف بلا إيمان . . بلا معنى . بلا إله ..كيف أحتمل حياة كلها عبث فى عبث .

لماذا لا تتكلم . .

ـــ ماذا أستطيع أن أقول لامرأة لا تشعر أن فى عالمها إلهاً . . كيف ادخل لها النور . . وقد أغلقت كل النوافذ . .

ـــ أنا لا أريد إلهاً . . أنا أريد رجلا يحبنى وأحبه . . رجلا يحبنى

بكل قلبه . .

وعادت تبكى . .

* * *

طول الطريق أثناء عودتى من الإسكندرية كنت أفكر فى نانى . . عصفور جميل سجين . . بين جدران أربعة من المستحيل . لا يملك حريته ولا خبزه ولا جسمه . . يغنى . . لأن لمسة من الحب لمست روحه ففاضت بالحنان والجمال . . وأحبت كل شىء . . حتى الألم وجدت له مبرراً وعذراً . .

وفاطمة التى تمرح طليقة كما تشتهى تشرب السم لتموت ببطء يائسة وحيدة تعيسة .

بدون حب . .

ياويلنا بدون حب . .

وأحسست بالشوق . . بالشوق المبهم إلى الصعود حيث توجد حبيبتى فى ملكوتها وجمالها . .

وكان الشوق يسحقنى يذيبنى . .

وكان أول شىء فعلته حينما وصلت أنى جريت نحو التليفون وأغلقت الباب . . كطفل يريد أن يأكل قطعة من الحلوى وحده . .

ورفعت السماعة وأدرت القرص على أرقامها الخمسة . . . ثم جبنت فوضعتها وأنا أرتجف . . ثم عدت أحملق فى الآلة السوداء . . والمشاعر تتخطفنى . . ولبثت فترة . . ثم عدت فأدرت الرقم . . وسمعت صوتها رائقاً . . صافياً . . حلواً . .

ـــ نانى . . أريد أن أراك . .

ولبثت صامتة لحظة . . ثم أجابت فى صوت متهدج يذوب حباً .

ـــ ياحبيبى . . إنى أراك . . أراك أنت وحدك . . ولا أرى شيئاً سواك . . أرى بك الدنيا كلها . . أراها فى ضوئك . .

ـــ نانى . . أنا أريدك . .

ـــ ياحبيبى . . لاتخذلنى . .

ـــ إنى أحبك . . أحبك . .

ـــ إن حبك جعلنى ملكة . . فلا تدعه يجعلنى جارية

ـــ أنا أحبك . .

ـــ أنا أعبدك ..أنت روحى . . إرادتى . . أملى . . كن ارادتى الكبيرة ولا تكن ارادتى الصغيرة . .

ـــ أنت لا تحبيننى كما أحبك . .

ـــ أنا أحبك أكثر مما تحبنى . .

وسكتت لتلهث . . وتخطف أنفاسها.. كأنها كانت تجرى شوطاًطويلا..

وأحسست بلهثاتها تنبع من بعيد.. ومن قريب . . من قريب جدا .. من روحى . .

وأحسست أنى صغير جدا إلى جوارها . . ولم أعرف كيف أعتذر .

ـــ ساعدينى لأحبك كما تحبيننى يا ملكتى . . لن أجعلك جارية أبداً . . أبداً .. سوف أكون إرادتك ..إرادتك الكبرى . . وأجمل أحلامك .

ـــ ياحبى . . ياحبى . . ياحبى .

* * *

وظللت برهة ساكناً . . لا أحس بوجودى فى الدنيا . . ثم بدأت أفيق . .

وذهبت إلى عملى . . وظللت أشتغل إلى وقت متأخر من الليل . . وعدت مرهقاً . . لأتمدد فى فراشى مفتوح العينين فى الظلام . . أتذكرها وأتذكر كلماتها . . كلمة . . كلمة . . وألتمس منها القداسة . . والنجاة . . وأتوسل بها إلى الجزء الأسمى من وجودى . . وأصعد إليها . . على درجات المستحيل درجة . . درجة . . يأخذ حبها بيدى . . إلى حيث أجمل لذاتنا . .

تمت

كتب أخرى للمؤلف

أكل عيش

الله والانسان

قطعة السكر

ابليس

اعترفوا لى

الرسام



جمال كامل

- تخرج من الفنون الجميلة قسم التصوير عام ١٩٤٨ وكان أول دفعته .
- واقعى فى رسمه يؤمن بأن النفاذ إلى الحقيقة والوصول إلى ماوراء الواقع لا يكون إلا عن طريق دراسة الواقع وتفهم تفصيلاته .
- يمتاز بعقل مفكر ناقد يختفى وراء ريشته وخطوطه . . وهو لهذا يعيش فى يقظة فنية تعذبه . .
- خطوطه فيها أناقة ورقة وحساسية . .
- يقول أنه لم يصل إلى أسلوبه الذى يحلم به بعد . .

ص
١٥

دار الجيل للطباعة
١٤ شارع قصر اللؤلؤة . الفجالة